محسن الرملي

الفَتيت المبعثَر

الرواية الحائزة على جائزة أركنسا الأمريكية - 2002

مكتبة الفكر الجديد

محسن الرملي

الفَتيت المبعثَر

الرواية الحائزة على جائزة أركنسا الأمريكية 2002

الطبعة الثانية

https

2014

الفتيت المبعثر / رواية
محسن الرملي
الطبعة الثانية - أكتوبر 2014
ISBN 978-99958-70-57-7
رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة
284 / دع / 2014

جميع الحقوق محفوظة ©

ص.ب: 65317 المنامة، مملكة البحرين
هاتف: 221 177 77 973+
فاكس: 212 177 77 973+
البريد الإلكتروني: info@masaapublishing.com
الموقع على شبكة الإنترنت: www.masaapublishing.com

Copyrights © Masaa Publishing and Distribution

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من المؤلف أو الناشر.

لوحة وتصميم الغلاف: قحطان الأمين

الصف والإخراج الفني

GRADIENT
info@gradientmedia.net
www.gradientmedia.net

الإهداء:

.. إلى روح شقيقي حسن مُطلَك.
لأنه.. بعض من هذا الفتيت.. المبعثَر.

« يريدون إقناع الشَعب
كم هو على خطأ،
وأن نظرة القائد هي المصيبة..
إنها مصيبةٌ .. حقاً.»

قاسم حداد

صِفر الرَّوي

غادرتُ بلدي مُتّبعاً خطوات محمود، باحثاً عنه، حالماً بأن نفعل شيئاً ما، ونصبح رجالاً يستحقون الاحترام كي نبحث عنا، من بعد نساء مثل وردة؛ ابنة عمتي التي تنقلت بين الأزواج حتى انتهت تحت إسماعيل الكذّاب.

لم يكن محمود يعني شيئاً لأحد، حين كان في القرية ولما غادرها وغادر البلد متسللاً عبر الشمال، إلى الخارج، حيث لا خَبر، وحيث ينساه الجميع تماما باستثناء والدته (المكرودة/ المَهضُومة). عمتي التي يطرأ محمود على ذاكرتها في لحظات متباعدة. وربما لم تكن لتتذكره لولا أنه قد كلّفها آلام حَمل وولادة، ومسح لمؤخرته بأطراف قماش المهد حين كان طفلاً.. بل وحتى تلك الذكريات عنه تضيع على عمتي بحكم تشابهها مع ذكرياتها عن طفولة سبعة أولاد أوجعوها... ثم اختفوا.

لم يعنِ غياب محمود شيئاً لأحد مثلما لم يكن وجوده يعني شيئاً. وحدي من كان يفكر بما فعل أكثر من التفكير به، الأمر الذي جعلني أطمح للقائه بعيداً عن قريتنا.. ولكنني لم أجده حتى الآن.

اتبعت طريقه فانتهيت مثله. تسلّلتُ عبر الشمال ليلا، وسائق الشاحنة معطلة الأضواء سكران ويغني بالكُردية، قائدا للحديدة الراعدة عبر الدروب الملتوية، الصاعدة الهابطة مستفيدا من ضوء القمر، ولذلك كانت أُغنياته كلها عن القمر ووجه ليلى، ولذلك كانت أيدينا كلنا على قلوبنا. نظرتُ إلى التماعات ماء عيون الجبال والشلالات المتدفقة، وسطَ الصخور والشجيرات المتعلقة بسفوح الجبال، كأطفال استمسكوا بظهور أمهاتهم، وعلى القمم يشع الثلج الأبيض مثل قبعات فضية بحجم الحلم، فقلت لنفسي: إنها جنة أخرى في الحلم.

بعدها توالت الأعوام عليّ من بلد إلى بلد، في المحطات، ولا غرابة في ذلك لأن المحطات وجِدت للنوم والانتظار والنهايات. ها أنا وحيد أجنبي. وسط الأجانب؛ الهواتف مقطوعة، والرسائل لاتصل دائماً، وليس ثمة أخبار عن أهلي في الصحف الإسبانية: هل شُفيت أختي رُبيّة؟ ماذا حدث لابن عمي المحاصر في الجنوب؟ كيف يعيش جارنا

الذي قُطعت ساقه في الحرب؟ أين أصبح أصدقائي؟... الحكايات الحزينة صارت مُملة في العراق لكثرتها، فلكل إنسان هناك مصيبته التي كف عن حكيها لأن للسامع مصيبته أيضًا، وسيجيبه بنفض اليد قائلاً: «هو اللَّمبَجي ومات»، فيشرعان معا بترديد أغنية يوسف عمر: «مات اللمبجي (.....) فطّومة»، تلك الأغنية التي كان يُسجَن بسببها يوسف عمر بحجة (مساسها بالأخلاق العامة..) فيقول لهم: كنتُ سكرانَ، ولن أعيدها. يُطلِقونه بعد ثلاثة أشهر، فيغنيها مرة أخرى في المقهى البغدادي؛ الكائنِ بين شارع أبي نؤاس وشاطئ دجلة، حيث تهتدي الناس إليه على عنوان رائحة السمك المسكوف. يعيدون يوسف إلى الحبس ويعيد عليهم الجواب، ويُعيد الناس عليك الأغنية كلما همتَ بسرد حكايتك: «إنسَ يا أخي.. إنسَ يا معوّد، نريد سماع النُكت، فحتى مصلح الفوانيس الذي كان يحكي فطّومة قد مات»...

ولمن سأحكي مادام الناس هنا في مدريد لا يعرفون شيئا عن هذا الذي أقوله؟ خاصة أنّه كلام لا يتعلق بكرة القدم، أو مصارعة الثيران، أو حتى فضائح الممثلات... ولكن لابُدّ لي من استعادة وجه عمتي، على الأقل، كي أستحثّ نفسي على مواصلة البحث عن محمود، كي

أستطيع التعرف عليه إذا صادفته، فهو أكثر المخلوقات عرضة للنسيان... ووحدي هنا مَن يعرف كل شيء هناك؛ في قريتي الساكنة على شاطئ دجلة، في موضع أول شجيرة سِدر نبتت صدفة، وقيل بأنها كانت تضيء ليلا لهذا سرقتها الحنافيش، لكن قريتي مازالت على ضفة، وجبل مكحول على الضفة المقابلة حيث ترتفع قلعة آشور أعلى من كل شيء، وفيما بينهما، وسط النهر جزيرة صغيرة مكتظة ببنات آوى، والذئاب، وأعشاش طيور الدراج بين أشجار الطَرفة، حيث يتسلل الصِبية ليلًا، لصيدها نائمة على بيضاتها، فيصيدون العشاق النائمين على الرمل، ويخبرون القرية، فنعرف صباحًا ما حدث في الليل، مثلما عرفنا ليلاً ما حدث في النهار.

صباحاً، إفطارنا من زبدة بقرتنا المبقعة، التي أهداها جَدّي لأمي عند زفافها، الممزوجة ببعض من زبدة البقرة الهولندية الوحيدة في القرية عند خالي البيطري. صباحا، يتم تلاقي الأمهات على تنانير الخبز، يتبادلن الأخبار ويعددنَ لبثها على عوائلهن مع أرغفة الخبز الساخنة وأقداح الشاي: عمشة قالت وهي تنشر فراش نومها المبلل على سطح الدار: لقد بال زوجي عليّ الليلة أيضا. ثم تضيف على لسانه؛ بأن الأطباء لم ينفعوه ولا الدراويش. ابن عدلة

العرجاء وجد ابنة العريف عبد الرحمن مع ابن سعيد العطار ليلًا في الجزيرة، والشيخ صالح يأمر بتزويجهما وستر عرض الناس، وإبراهيم المغني يؤلّف عنهما أغنية يرددها في الأعراس فيكرمانه عنزاً بجدييها. حمار وضحة اقتلعَ وتدا ربطه بأسنانه، فوجدَته صباحا يأكل الشعير في معلف حمارة غازي عند آخر بيوت القرية، جوار المقبرة. حسيبة ركلت قاسم ليلاً على خصيتيه، ولذلك لن نستعيد اليوم مذياعنا الذي تركناه عنده بالأمس ليصلحه.

أثناء تناولنا للعشاء: ثريد الباميا والطماطم والبصل، نعرف أن بيت العجاري قد تعاركوا مع بيت الفهد حول دورهم على الساقية لري القطن، وسعدي أخذ الأولاد الصغار إلى الوادي ليفسد أخلاقهم؛ حيث يجري لهم مسابقات القذف في العادة السرية، يكافئ الفائز بمنحه مؤخرته لمساء كامل يفعل بها/ فيها ما يشاء، وإسماعيل تنبأ بأن القرية ستَستقبل غدًا جثثًا أخرى لخمسة من أبنائها قتلوا في الهجوم الأخير على الجبهات. فرحان يفكر بالزواج من عائشة -امرأة رابعة- يجدد بها فِراشه، وقد صبغ شيب رأسه ولحيته بالحناء حال سماعه بمقتل زوجها في الحرب، وحليمة أنجبت ولدًا، أسمته عبد الصمد، أخذته إلى الطهارة، طلعت من دبره فأرة..... هكذا كنا هناك نعرف

يوميًّا ما يحدث وما يفكر به أحدنا. آناس ولدوا في تلك القرية ويموتون، لكن الذي يؤلمهم: أن الحروب جعلت بعضهم يموت بعيدًا عنها.

الأبواب في القرية مفتوحة والكلاب لا تنبح إلا على الغرباء. للأشياء هناك أسماء خاصة، الحيوانات والتلال والأواني والأحجار والغيوم. للناس أسماء كثيرة، منها ما يُطلق بعد حادثة ويشتهر، أو يقال مزحة ويستمر، منها ما يظهر فجأة ويختفي عند حلول غيره، منها ما يُطلق رمزًا ويصبح واقعًا، ومن الناس مَن ينسى الناسُ اسمَه حين يدمنون على مناداته بابن فلان أو فلانة أو زوج فلانة العجّانة، وما لا يُعرف اليوم سنعرفه غدًا، والذي لن يُعرف لن يهمنا... فلماذا نسأل: من أين تُؤكل تفاحة الحياة؟... ومن أين سنُمسك القُنفذ...؟

- 1 -

القُنفذ موجود على الرغم من أنوفنا. تجده متكوراً. أشواكه من كل الجهات والأرض كروية. الحياة من كل الجهات... إذاً مد يدك إلى القنفذ من أية جهة تشاء، قد تقع إصبعك على الرأس.. أو على الفم تحديدا، قد تقع على البطن أو المؤخرة.. أو قد لا تصل، مثل إصبع زوج عمتي التي ارتدت -قبل أن تصل- حين انتفش القنفذ وانتفض أمامه، فانتثرت الإبر الملونة في كل الاتجاهات، ومنها اتجاه بلعوم عجيل الذي ركض بنطٍ كنغري صوب البيت ، مشادهش الصِبيّة ترفرف حوله مثل الأعلام التي ترفرف في التلفزيونات عند انتهاء البث ونوم أقداح الشاي بدبقها الـ..ـري... حينذاك لم يكن عجيل قد تزوّج عمتي ولا أبي ، ما لأمي (فأين كنتُ أنا؟!).

حيثما كانت قاماتهم -جميعا- تصل إلى سُرة جدّي.

كلهم صِبيّة بدشاديش مرفرفة كأعلام التلفزيونات. لحقوا بعجيل إلى البيت وأحاطوه. وهو يقف أمام أمه. بسور من عيونهم الجاحظة التي ازدادت اقتراباً واتساعاً لحظة اكتشافهم؛ أن المُمسك ببلعومه لا يستطيع الرد على أسئلة أمه، وهي تدق صدرها بفجيعة، وأم عجيل ميتة الآن بعد أن كانت آخر كلمة لها قبل استلال الروح كالخيط من جروح المستشفيات: مَسامير.. مَسامير.. مَسامير..

هكذا ردّدَتها بخفوت ثلاث مرات وماتت. كانت تسأل ولدها عن الذي حلّ به -لأنها لم تكن تعرف أن الذي به هو إبرة قنفذ مغروسة في البلعوم- يجيبها بصوت مبحوح، ثلاث مرات: بح.. بح.. بح... ويشير بإصبع اليد الأخرى إلى جهة القنفذ، فتسأل الأولاد/ الدشاديش، ولا يعرفون، لأن عيونهم لم ترَ شيئاً. ترفع بكفها كفه القابضة على رقبته، فيُبصر الصِبيّة خيط دم رفيع يصعد وينزل كلما أراد. الذي سيصبح زوج عمتي. أن يتكلم: بح.. بح.. بح. كل كلماته بَحْبَحات، وكل الذين رأت عيونهم خيط الدم الرفيع الصاعد النازل مع تفاحة آدم، لم ينسوه... حتى وهم يحيطون الآن بدِلال القهوة ويتحدثون عن السوق الأوربية المشتركة وتصريحات الرئيس الأمريكي وأفلام الكا.. «وبوي» / «رتون» - وعن دم الاغتيالات

في الصحف، فيستعيدون خيط الدم الرفيع، النازف من نفاحة آدم، الذي أبصروه قبل سبعين عاما ويتساءلون، على الفور، عن سبب عدم حضور الحاج عجيل إلى قهوة صباح هذا اليوم.

انهم يفتقدون لمعان نظاراته الطبية بين نظاراتهم التي ذبلت وراءها تلك العيون التي كانت جاحظة قبل سبعين صيفاً، تلاحق أمه وهي تقتاده إلى أبيه المنهمك بقراءة القرآن تحت ظل النخلة، على الحصير المصنوع من سعفها... النخلة الوحيدة التي تشمخ جنوب فناء الدار. صدّقَ الله العظيم على عجلٍ. قَبّل الكتاب وهبَّ بابنه إلى طبيب القرية. أخذه الطبيب إلى مستشفى المدينة. اصطحبه موظف الاستعلامات إلى الطبيب الخفر الذي كان يغازل الطبيبة الخفر، فوضعوا لعجيل نظارات عاجلة، وعاد مع أبيه إلى ظل النخلة، فكنَست أمه ذرق العصافير والحَمام والفواخت والدجاج عن بقعة الجلوس... ونُسِيَت إبرة القنفذ تقريبا، فيما ظل عجيل يضع النظارات الطبية على عينيه حتى في ليلة عرسه، والعروس عمتي.

أنجبَت له قاسم الذي قضم الجرذ أذنه وهو نائم بعد أن حكها فور نهوضه شبعا من صحن الثريد المنقوع بالسِمن الحيواني (دهن حُر) سمن ذهبي اللون كالقمر استخلصته

عمتي من حليب بقرتها التي بكت عليها حين ماتت.. عمتي هي التي بكت على البقرة وليس العكس، لأن البقرة ماتت قبلها، بعد رش المبيد الذي بعثت به وزارة الرعاية الاجتماعية لرعاية القرى في بداية صيف بعيد، يوم انتشرت في قريتنا فُرق من الرجال الغرباء، يحملون على ظهورهم براميل تمتد منها خراطيم طويلة تنفخ رذاذاً أبيض مثل الحليب - ولكنه ليس حليبا، لأنهم قالوا لنا أثناء رشهم لسقوف بيوت الطين: إنه سيقتل الأفاعي والجرذان والفئران والقنافذ والصراصير والقمل والقراد والدود والعناكب وأسماء أخرى نسيناها.

ثمة شاب كُردي يرسم على حيطان أكواخ الدواب قلباً، يخترقه سهم، كلما لمح في الدار التي يرشها، فتاة جميلة، وكانت وردة ابنة عمتي أجمل من فتيات الإعلان عن الصابون، فوَسَّع الكردي من دائرة القلب ثم أنزل سهماً طويلاً؛ من أعلى السقف. حيث أعشاش العصافير بين القصب، وحتى أرضية الكوخ المفروشة بالروث والطست.. أنزل السهم بعنف ولوعة، ناظراً إلى وردة، وهي تنظر إليه فنسي أن يُوقف تدفق الأبيض من رأس العصا الحديدية المنتهية بخرطوم ممتد من البرميل على ظهره. اصطبغ الماء في الطست الذي تشرب منه بقرة عمتي.

ابتسمت وردة لراسم القلب ودخلت تعدّ الشاي. خرج الشاب من الكوخ ودخلت البقرة. شربت من طست شربها دون أن تفكر ببياض الماء، وهي لا تفكر لأنها بقرة... وماتت. بكت عليها عمتي التي كانت تصنع من حليبها سمنا لذيذا للثريد يحبه قاسم الذي حكَ أذنه بكفه الدسمة قبل أن يغسل يديه، ونسي أن يغسل أذنه، ثم بال، ثم نام، فجاء الجرذ من ثقب جحره المحفور في الزاوية المخفية تحت دكة حمل الفراش والسجادات.

يطيب للجرذ أن يخرج حين ينام الجميع. يتجول في أرجاء البيت، يتشمم الأرضية الترابية الرطبة، باحثا عن حبة رز أو كِسرة خبز أو أي شيء من فتيت لُقَم عجيل الذي كان يخطئ أحياناً في وضع اللقمة في فمه فيدفعها إلى منخريه أو لحيته، لأنه لم يغير نظاراته الطبية التي أحبها بعد إبرة القنفذ، الذي لم يجدوه أبدا بينما كانوا يرون الجرذ. يهاجمونه بدخولهم بعد غياب قليل، فيفر إلى جحره، حيث يتخاسل الجميع عن ملاحقته.

لا أحد يفكر بتفكيك الدكة لمجرد البحث عن جرذ تافه... حتى استيقظوا ذات صباح وهم يتسابقون لتحطيم الدكة.. بل مستعدون لتحطيم الجدار الذي تتكئ عليه الدكة، وتحطيم الدار كلها لو استوجب الحال من أجل

الظفر بذلك الجرذ الذي قضم أذن قاسم، في الليل، قضمة واحدة بعد أن تشمّم الدسم في أعلاها.

ظلت أذن قاسم مقضومة من الأعلى حتى بعد أن تزوج وأصبح له أولاداً بأسماء كثيرة منها: إبراهيم وإدريس وشيماء، التي يتوقع الأطباء موتها بعد أشهر قليلة، وزوجها يقف جوارها مستعرضا أرامل القرية في رأسه ليقدّر: أيهن ستصلح لتربية طفليه بعد شيماء ابنة قاسم، الذي استطاع بعبقريته في تصليح الأجهزة الدقيقة والكهربائية وإتقانه صنوف الخط العربي، وفي اختراعاته وأحاديثه وهروبه من الجيش وذكائه، أن يَشْغل الناس عن أذنه، لينسيهم السؤال عنها أو الضحك منها، وحتى النظر إليها... رغم تميز قاسم بهدوء طبعه إلا أنّه تزوج ابنة عمه سليطة اللسان، القادرة بشتائمها على تهجير مدينة، ذلك أنه لم يستطع مقاومة بياض ذراعها التي رآه فجأة ذات فجر مفاجئ، حين أيقظته مثانته المكتظة بالبول فنفض غطاءه وهرول خارجا باتجاه المرحاض المحفور جوار التنور في

بين فخذيها متلفتة إلى الفجر من حولها، فأبصرا بعضهما وابتسمت.. كانت تلك أول مرة يرى قاسم فيها ابتسامة حسيبة، وأول مرة يرى فيها ذراعا عارية لامرأة، فصعقه بياض اللحم... حينذاك كانت حسيبة مضطرة للخروج بقميص نومها الداخلي معدوم الأكمام، ولم يحدث لقاسم أن رأى من النساء غير وجوههن والأصابع. فكل نساء القرية مُلَفلَفات بطبقات الثياب كالبصل. وفي اللحظة التي وقف فيها مباعداً بين قدميه فوق فم المرحاض، مصوبا خيط بوله المندفع بلذة آلية ويتطلع من فوق الحائط، إلى مرحاض بيت عمه، حيث تَخَفّت حسيبة. فكّر في بولها وتخيل اللحم الأبيض والذراع البيضاء، شعورها باللذة والارتياح. مثله عند تدفق المحبوس، ووجد نفسه يغني:

«هواك أنت يُذكرني بفرات ودجلة يوميا / مثل قلبي ومثل قلبك تلاقين صافية النية».

في تلك اللحظة بالضبط، قرر أن يُوحد مصادر بوليهما مهما يكن الثمن... في تلك اللحظة اندفعت حسيبة من مرحاضهم راكضة نحو باب الدار فطار شعرها في الهواء، وتحرج صدرها، التمعت ذراعها البيضاء وأوصدت الباب خلفها بعنف... أيعقل أن يكون لون اللحم أبيض إلى هذا الحد؟؟! بضّا إلى هذا الحد؟؟! وظَل قاسم واقفاً،

ممسكاً بقصبة بوله حتى طلعت الشمس وهو يكرر السؤال على نفسه بمصيرية: أيعقل أن يكون اللحم أبيض إلى هذا الحد؟؟!.. أيكون الذي يجري تحت جلدها حليباً أو لبناً أو سُماً وليس دماً؟... وأخذته الأسئلة إلى شاطئ النهر حذاء القرية. جلس على الحصى غارسا قدميه في الماء حتى حلّ الظلام. تذكر أنه لم يتناول فطوره ولا غذاءه. لم يرسم شيئا...

لا يدري كيف مر النهار، ولكنه كان نهاراً أبيض كبياض ذراع حسيبة التي استعاد صورتها آلاف المرات؛ طيران شعرها الطويل مُطارِداً رأسها مثل ذيل طائر جميل. امتزجت في عينيه رجرجة صدرها برجرجة الأمواج على حافات الرمل. مدّ أصابعه إلى ارتفاعات الرمل يتحسس طراوة النهد ورخاوة الذراع الإسفنجية البيضاء، استدارت كفه حول حصاة مغسولة بحجم البرتقالة متحسّساً فيها نعومة استدارة كتف حسيبة: «آه.. يا حسيبة، لم أكن أعلم أنكِ تكنزين كل هذه الأنوثة وراء استرجالكِ المُخيف...!».

كان يخافها مثل الجميع، الذين يتحاشونها؛ إن لم يكن تجنبا لبذاءة لسانها فلتجنب تخميش أظافرها الذئبيّة، أو عصا الطَرّفة الحمراء التي تتأبطها دائما لحمارها وأبقارها

و للمتعرضين لها.. بل إن أكثر ما جعل قاسم يعتزل اللعب معها منذ الطفولة هو: متانة قدمها، أو هكذا تخيلها حين رأها تركل البرميل من تحت أخيها، الذي صعد ليمد يده إلى عش عصافيرها في أعلى السقف، وقاسم كان يدرك بأنها ليست عصافيرها، ولكنها هي التي قالت ذلك، وأجابها حينذاك، في نفسه سرًّا: بأن العصافير.. عصافير الفضاء.. عصافير الله.

سقط شقيقها علي على الأرض وانكسرت ذراعه. تكومت أسنانه تحت وجهه في بركة دم، ودون أن تلتفت إليه، أوقفت البرميل وارتقت عليه، فيما علي يصرخ محاولاً استنهاض جسده، ورذاذ الدم ينفر من منخريه كلما صرخ معاً. مدت حسيبة كفها في العش، استخرجت بيضتين وقالت: «بيضاتي» فقال قاسم - في نفسه سِرًّا: «إنها بيضات العصافير التي هي عصافير الفضاء الذي هو فضاء الله». ثم غادر بصمت، ولم يلعب معها بعد ذلك أبدا، رغم أن لعبها كان ممتعاً ومخيفا كاللعب بالسكين أو النار... وكم اشتد به الحنين إلى اللعب معها، حين كان ينظر إليها من بعيد بينهم، وهي تبتكر الألعاب العجيبة، تتسلط على بقية الصغار، تتحكم بهم بشراسة نِمرة.. إلا أنه كان قد عزم على عدم اللعب معها منذ رآها تركل البرميل من تحت علي

بعنف القنبلة. ظل يتجنب الالتقاء بها وهما يكبران، يكبران إلى أن تفجر حنينه المتراكم -دفعة واحدة- في ذلك الفجر الأبيض كذراعها...

أذهلته الدهشة وهو يسمع الحاج والده يطلب له يدها من الحاج عمه... فكيف عرف أبوه بأنه يريد ذراع حسيبة تحديداً وليس حسيبة؟! أو الأهم هو الذراع، ثم بعد ذلك، يأتي الكتف الشعر، تأتي حسيبة. لقد دوّخته هذه المسألة كثيراً.. فهل أن والده يقرأ أفكاره إلى هذا الحد؟!.. هل لوالده كل هذه الفراسة؟! أم أنه هو الآخر قد رأى ذراعها ذات فجر؟.. أم أنه قد سمعه هاذيا ببياض ذراعها للنهر أو وهو نائم؟... ظلت هذه الدهشة المتشظية إلى أسئلة تموج في دواخل قاسم إلى أن أطلّع عليها حسيبة ذاتها بعد فترة من زواجهما، فانفجرت بالضحك ثم أجابت بتهكم: «الجميع يقولون ذلك عندما يتقدمون لخطبة فتاة يا فهيم.. يا مجنون حسيبة.. يا حمار». وهي لا تشتمه إلا حينما يكونان وحدهما، أما أمام الناس فتصنع انقيادها له، ولا تناديه إلا بـ «أبو شياه» أو «أبو إبراهيم».

هذا ما صرّح لي به قاسم نفسه بعد ما يقارب خمسة وعشرين عاماً من زواجهما فسألتُه: وما الذي جعلك تتورط معها كل هذه السنين؟ قال: إنها رائعة يا ابن

حالي... إنها امرأة دائمة الاشتعال.. دائمة التَحَفّز.. دائمة الاقتتال.. دائمة التوَهّج.. دائمة الخضرة، وأنا فنان، أحب المغامرة، ولا أجد لذة الحياة إلا في تلك الأجواء الخطِرة بجمالها. مثل متسلق الجبال، أو مصارع الثيران، أو مثل لاعب السيرك، فمتعة الماشي على الحبل هي المتعة الحقيقية، لأنه إن لم يكن حاضر التركيز بكل حواسه وكيانه سيقع ويموت، ومثله اللاعب مع الأسود والنمور، إنه عرضَة لافتراس في أية لحظة، وهنا تكمن قيمة حياته الحقيقية ونعمتها المكرس في لحظة... وحسيبة نمرة لا تهدأ.. تجعلني أعيش السنوات كتلك اللحظة.. باحتراق دائم.. على حافة الدوام والانفصال، البقاء والزَوال... هكذا في النقطة المتحركة الحرجة دائما...

وكشف لي عن معلومات أعرفها من قبل -كأغلب أبناء القرية- وهي أن حسيبة لا تخاف منه ولا من أي شيء أو من أي شخص في هذا العالم مطلقا، إلا من والدها فقط.

تقول: «هو الوحيد الذي أخاف منه في هذه الدنيا، أخاف منه حتى أكثر من خوفي من الله». فوالدها حين يعاقبها، كان يعذبها بأساليب تتناقلها القبائل، وتفشل في إيجاد الوفود والوجاهات.. بل أنه يهدد بذبحها إذا ما ألحَّ العاشقون عليه، فقد أدار وجهها، ذات مرة، إلى القِبلَة

ولوى ذراعيها خلفها، داسها بجزمته ومد السكين إلى رقبتها ليذبحها كما تُذبح الدجاجة لولا أن توسّل به المفاوضون، ووقعوا على يده يقبلونها ليتخلى عن نية الذبح وأنهم سيغادرون، فعدل بعد صمت طويل، ثم ركل البنت على رأسها بشدة فتدحرجت غائبة عن الوعي، فيما جلس هو في الظل على صفيحة، وراح يدخن سيجارته بعد أن أمر زوجته المرعوبة/ المُسربَلَة بدمعها؛ أن تُعد له شاياً ثقيلاً... وحسيبة هي الفتاة الوحيدة لسبعة أشقاء، كلهم أخذوا الارتعاب والخوف والبرود والاهتزاز عن أمهم، وانفردت هي بوراثة الجسارة الجنونية عن أبيها، فحين تصرخ بإخوتها غاضبة. كانوا يُقسمون؛ أنهم يُبصرون شَرر النار يقدح من عينيها، فتبتل سراويلهم.

- 2 -

عُرفَ الحاج عجيل -من قَبل انديا ح أولاده السبعة من
طن عمتي- بثلاث علامات؛ اثنتان منهما، يكاد لا يشبهه
فيهما كائن في العالم، فعدا نظاراته الطبية، كان يتفرد ببحة
صوت تُذكر السامع بإبرة القنفذ التي انغرست ببلعومه،
ثم هوسه الوطني الذي يكاد يكون عِبادة.. بل هو كذلك
إذا صرّح به بصوت خطابي عال في مجلس قهوة القرية، حين
يسدل ذراعه من كُم عباءته ووقف على ركبتيه بصلابة، فيما
ا ضمت إصبعاه، علامة النصر، بلا دراية.

قبل إن الحديث حينئذ كان يدور حول تصريح أجنبي
يشير إلى ضرورة إعادة ترسيم الحدود.. أو أشياء كتلك.
على الرغم من بحة صوته إلا أنه زمجر على نحو أخرسَ
الجميع وفرّت بسببه العصافير التي كانت تحيط بالمجلس،
وهربت اللب المتبقي في قشور بذور عباد الشمس، التي

قيل: إنه قد قال قولاً جميلاً وقوياً في خطابه أو كلمته المرتجَلة، أو فلنقل «المُرتكَبة»، على الأقل من باب التذكير بوقوفه على ركبتيه طوال اشتعالات صوته. ولأنه أفحم الجالسين، ولم يجدوا منفذا لانتقاد أو انتقاص أو مناقشة كلامه (الرهيب) كما وُصِف فيما بعد، فإن المُلا صالح، مؤذن الجامع وإمامه، وحده الذي استمسك بكلمة، رفض على أساسها مجمل الكلام، فأيده البعض خوفا من الله، ثم الأكثرية، ثم عجيل نفسه فيما بعد.

قالوا له: «اجلس يا رجل واستعذ بالله من الشيطان.. عيب على شيباتك». لقد حدث ذلك بعد أن وصل عجيل إلى ذروة حماسته هاتفا، بعد أن تلكأت في بلعومه جُملة قوية، كادت تخنقه لأنه حارَ بها تعبيراً، ولذلك صرخ بها مهتزاً حين شعر بأنه قد وجدها فصاح: «إني أعبد وطني.. إني أعبد وطني...» وقبل أن يكررها للمرة الثالثة قطعها عليه الملا صالح بنهوض مفاجئ وصرخة غضب زاجرة مُزمجرة، سربلت لحيته بالرذاذ: «اِخرس.. أعوذ بالله منك، ومن وطنك الذي تعبد..» وبنبرة أهدأ، ردد مرة أخرى: «أعوذ بالله.. لا إله إلا الله.. أستَغفر الله..» وجلس... كما تراخت ركبتا الحاج عجيل، وهو ينتبه إلى فداحة ما اقترف

وصفه له، ولكن لا مجال لتبرير ما أفلَت منه بوضوح، فجلس، مطرق الرأس تحاصره الوجوه والعيون نفسها، هو ذا الصبية أصحابه، التي أحاطته يوم انغرست في باطن قدمه إبرة الفضل... ولعلعت الألسن باللوم والتقريع: «هل عرفت يا رجل؟!»، «تكفُر وأنت في غروب عُمرك؛ ...ك في القبر وساق في الدنيا..!».

ملأ الملا صالح: «إنها وثنية جديدة والعياذ بالله»، إلا أن عجيل، والكل يعرفه؛ (هذا هو/ هو هكذا)، متحمس واقع الوطن منذ أن قتلَ جده ضابطاً إنجليزياً (ابن كلب)، فما يُعجبه هو كلما ذُكر الحكاية التي حدثت منذ أيام ما قبل الاستعمار، وغاب جده بعد ذلك.. غاب حتى الاستقلال وبعده/ حتى الآن، وربما إلى يوم القيامة، أو بالتأكيد، فكل ما يهمه منه عند عجيل: سيف معلَّق في واجهة غرفة الضيوف، وصورة متَخيّلة، راسخة في رأسه لخنجر بطعم العلم البريطاني المرسوم على حزام ضابطهم (ابن الكلب). خنجر يخترق العَلم والكرش الأجنبيين، وكلمة واحدة فحسب التصقت بقلب عجيل ولسانه وباسمه أطلقها عليه الجميع بـ «عجيل نَيْشَنَن»..

تلك الكلمة التي سمع الناس يلفظونها للإنجليز، واصفين لهم جده الغائب بعد أن قَتَل ضابطهم (ابن الكلب)...كلمة إنجليزية تلفظوها بلكنة بدوية National ولأنه اعتقد، عند سماعه لها أول مرة، بأنها «نَشِنَن» وليست «نشِنل» فقد ظل يلفظها كذلك، حتى بعد أن صححها له الكثيرون بمن فيهم ولده قاسم، الذي حاول تعلم الإنجليزية في مطلع حياته، لكنه كرهها فيما بعد حين غرق في تعلم الخط العربي، فأخذته جماليات فنونه إلى حد ابتكار ما أسماه بـ «الخط القاسمي»، وأشهَد بأنه قد أدهشني باللوحات التي أطلعني عليها، مزدحمة بالدوائر والقباب والمخلوقات، حتى إني طلبت منه أن يخط بالقاسمي شاهدة قبر أبي حين مات، في السنة الثانية للحرب حُرقة على مقتل ابن عمي وفقد الآخر...

يُندمني الآن أنني لم أحمل شيئا من خط قاسم، ولو من باب الإثبات لمحمود، عندما أجده، بأنني ابن خاله وأن الذي تغير فيّ هو حلق شاربيّ فقط، لكنني أعّزي نفسي بحملي للكلمة المفتاح بيننا، عندما نلتقي مجددين تعارفنا، سأقول له: «ترى هل أن غربتنا نَشِنَن؟» ونتعانق.

لم يكن عجيل يشتري أيّ بضاعة أو مصنوعا أبدا، ما لم يُكتب عليه National، وإذا أراد وصف رجلٍ أو شيءٍ

... عنه قال عنه: «نَشِنَن». ومن ذلك ما كان يقوله عن ... للفاصولياء: «إن فاصولياتها نَشِنَن»، وعلى ... من أن مدفأة ماركة (علاء الدين) محلية الصنع، ... رئتيه وسَخِمت وجهه بالكاربون حين تأججت ... ، إلا أنه لم يستبدلها إلا بأخرى (علاء الدين ...)، ومن بين أولاده كان يصف (أحمد)، الذي أصبح ... بأنه «ولَدٌ نَشِنَن»، كذلك وصفَ (عبدالواحد) بعد ... في الحرب.

أما (قاسم) و(سعدي) فهما «ليسا نَشِنَن أبدا، لأنهما ... من الجيش عند اشتداد الحرب»!!... وقد برر لي قاسم ... قبل شهرين من إعدامه وسط ساحة القرية، حين ... على شاطئ دجلة، في المكان عينه الذي نسي نفسه فيه ... كاملاً إثر رؤيته لذراع حسيبة فجراً.. أو فجر ذراع حسيبة، وأذكر من بين ما قاله: أنه يرفض الحروب جملة وتفصيلا، إنها لا تنسجم وميوله الفنية، أنه لا يريد أن يَقتُل أو يُقتل، وما يحدث مهزلة لا يستسيغها...».

أما سعدي فهو كعادته حين يُطلب رأيه حول أي شيء كان، ابتداءً بطعم الشاي وبلا انتهاء عند الحرب أو الدين، فهو إما أن يقول: «هذا شيء حلو» أو «غير حلو»، وكنتُ آنذاك أسمي طريقته، في إبداء الرأي هذه، التي

يشترك معه فيها ملايين الناس، بأنها «نقد نسائي»، وأحياناً «نقد حريمي»، أو حين أتحذلق أقول: «المصطلح النقدي الوحيد في قاموس معيارية النقد (النسوانيّ)؛ حلو أو غير حلو، يعجبني أو لا يعجبني»، وكان سعدي يضحك بلا انزعاج، ذلك لأنه لوطيّ ويعرف أن كل الناس تعرف ذلك، بمن فيهم الحكومة...

لماذا تهرب من الجيش كلما أعادوك إليه يا سعدي (أبو رأس)؟ يصمت، ثم يلوي رقبته بميوعة خنثوية وابتسامة باردة: «الجيش لا يعجبني والحرب ليست حلوة».

وحده عبدالواحد من بين أبناء عجيل نَشِنَ صَبر على الحرب، والتزم بحذافير قوانين الحكومة؛ شارك في معظم الهجومات حتى «استشهد دفاعًا عن الوطن والكرامة والسيادة والشرف والعزة والتراب..» كما يقول والده مردداً نص عبارات الإذاعة والتلفزيون والصحف وضابط شرطة الحكومة وكبير مسؤولي حزب الحكومة في القرية.. فليسقط الاستعمار، وليندحر العدو الغاشم الحاقد، صاحب الريح الصفراء، أو الابتسامة الصفراء، أو النوايا الصفراء، أو الخراء الأصفر.. أو أي شيء آخر أصفر...

أما أحمد فقد أنقَذَته وظيفته من السَوق إلى الحرب، حيث كان قاضياً.

وعبود كان صغيراً، منسياً، لم يبلغ سن الحرب آنذاك، إلى حين أن عبود لم يَعرف عنها إلا ما هو ضبابي ومقاطع من الأناشيد. التقطها في لحظات الصحو، وكانت أمه تحمد الله، أحياناً، لأنه خلقه من بطنها مجنوناً، وأحياناً أخرى تلوم الله على ذلك ثم تسارع إلى الاستغفار دامعة العينين.

ولدته عمتي بعد وردة. كان أجمل من وردة، فقالت نساء القرية: إنّ نافذة العسل قد انفتحت في رحمكِ، نادوه بوسف. ضحك بعد أسبوع فقالت لها أمي: «لقد عوّضكِ الله بضحكة عبود عن بلاهة سعدي، وبحُسنه عن دمامة سعدي»، الذي ظل يحمل اسم (أبو رأس) أو (أبو زاوية) إلى جانب اسمه. وبدلاً عنه أحيانا، بسبب غرابة وقبح جمجمته الكبيرة، إذ تبرز في مؤخرة الرأس استطالة عالمة تشبه زاوية شاذة، فيشبهه المختار بصخرة حدود الأراضي (فِسل حَد) ويشبهه الناس ببطارية «التراكتور» ثم راودته فكرة خنق عبود، الذي ما أن أنهى عامه الثالث حتى توقف الفرح بمقدمه الجميل، وانقطعت النسوة الحوامل عن الزيارة للنظر إليه وتقبيله، فقد أخذت التحولات تغزوه وتدهشنا.

قالت عمتي مُعللة: «أن عين حاسد قد أصابته لفرط جماله». شُقرة شَعره راحت تنقلب بالتدريج إلى رمادية،

شفتاه الرقيقتان أخذتا بالغلظ والتمدد حتى غدتا بوزا، برزت جبهته بوضوح، وازداد شَعر حاجبيه كثافةً واسوداداً، طال هدب جفنيه، تدبب أنفه حتى تَمَقَر، وما أن أكمل العام العاشر حتى تحول إلى كائن غريب وأصبح شكله مخيفا.. ذراعان طويلتان تنتهيان بكف واسعة وأصابع نحيلة، ساقان قصيرتان بقدمين عريضتين لا تحملان جسده، أحيانا... وسحنة رمادية.. رمادية يتنابها لون الحناء، أحيانا، وبالأخص قفا كتفيه، فقيل عن التقاء اللونين في العربية القديمة: أربـد ...

لم يكن كالأطفال، فإذا لعب معهم، لعبوا عليه، أو ساطَ أحدهم بذراعه الطويلة حتى أدماه، أو نطحه حتى يورم رأسه. كان يلطم رأسه كثيراً بالجدران، يبحث عن أصلب ما فيها لينطحه، ولم يُشج رأسه يوما أو ينفلق، كما سيتخيل راتيه الذي سيدرك أن في رأس هذا الغلام شيئاً يوجعه، يعذبه.. شيء يطن كذبابة نمرود، فكلما نطح جدارا حكَ رأسه بعد النطحة مركزاً على مقدمة الرأس، جهته اليمنى... «إن رأسه متين جدا فلا تقلق»؛ قال عجيل (نَشِنن) وهو يُطمئن ضيفه، الذي خرجت عيناه وهو يرقب عبود يناطح الجدران كتيس عنيد.

كان من الممكن تغييبه حتى النهاية (أية نهاية؟) بمجرد

... في الدار لولا إصرار عمتي على إخراجه من الحجرة
... الدار ... البيت قائلة: «يا عيني يا عبود»، لكنه أيقظ
... في ليلة بنصف قمر. هب الرجال من دكات
... والسطوح، حملوا بنادقهم وهرعوا إلى دار عجيل
... السبطانات» ونداءات التنبيه، ولوّلت النساء
... احتبأن خلف الأبواب، مرتعشات الأصابع وهن
... ربط خيوط ألبستهن الداخلية، التي هتكها الليل
... صرخن بأزواجهن خوفا وتحذيرا، فيما تشاغلوا
... مع أدوار المعركة: أنتَ من هناك؛ أنا من هنا، وأنت
... على السطح وليقف اثنان عند البوابة... يا حاج
... يا (أبو جاسم).. سمعنا عواء ذئب في بيتك!؟
... وسمعته أنا أيضاً.

... بابة إسماعيل مستيقظة، تتن في أطراف القرية
... ارتفع عواء ذئب، مرة أخرى، فتحددت جهته؛
... وعلى الفور سُلّطَت حُزم النور من المصابيح
... صوب الصوت، جهة التنور، تلك الزاوية،
... هالنا، ما شاهدوه: عبود يحبو على ذراعيه وإحدى
... رافعاً ساقه الأخرى بمثابة ذَنَب، مشرئب الرأس
... السماء، يعوي كعواء الذئب تماماً، فانطلقت عمتي
... راكضة، بعد أن كانت متخفية وراء الباب، ألقت

بنفسها عليه منتحبة، قلبها يتفطر «يُمّه عبود.. وليدي» ضمت رأسه إلى صدرها بقوة ووجع أمومة، خفضَ عبود من عوائه بالتدريج حتى صار يموء كقطة... ثم سَكت، وتراخت القبضات عن البنادق خلف السور، بعد أن تسربت إلى رئتي عبود رائحة أمه، التي لا يخطئها مثل أي ذئب شريف.

استَعر رعب وردة من خطورة تحولات شقيقها، الذي كانت تحبه أكثر من سائر إخوتها، لأنه يشبهها كما توأم، لكنها الآن ترتاب من تبدلاته للسبب نفسه، فتقف طويلاً.. طويلاً أمام المرآة تتحسس شفتيها الرقيقتين، المتحافَّتين مثل أوتار حزينة، حاجبيها، صدرها والأنامل ترتجف كلما طرأ لها خاطر، احتمال التحول مثل عبود، فتزداد رعايتها له نهاراً، تقدم له قشطة الحليب وزبدة اللبن، وأكباد الدجاج، وبيض العصافير، وقصب السكر الذي تقشّره بأسنانها... وتَحْذَره ليلاً، حتى أنها لتنام صيفاً داخل الحجرة، على شدة حرارتها، موصِدة الباب والنوافذ، وأحيانا متدثّرة، لكنها بقيت جميلة.. جميلة -والحمد لله- كما هي، وربما أكثر، بفضل التلَفلُف.

كلما استيقظت، هبت إلى المرآة حتى قبل الاغتسال، فقادها ذلك إلى تحسّس تكوّرات صدرها، امتلاء الردفين،

... الكتفين وتفاحتي الخدين. كانت تُطمئن نفسها ... طالما أوصاها به أمها، حين بثتها الشكوى، في حقل القطن، ... صبر على حجرها بالبكاء المُر فأجابتها: «ويحه ابنتي ... انتهى إلى أنكِ قد تجاوزتِ السن الذي حدث فيه ... حدث لعبود»، فتهدأ ثم تعاود الغص بدمعها والتساؤل الأمر «ولكنه كان يشبهني تماما يا أمي؟؟» تُسدد عمتي ... وردة بصبر واصطناع ثقة: «لكنكِ لا تشبهينه الآن».

طل الراهبون بالزواج من وردة أو الحالمون بعشقها في ... نساؤلاتهم والوساوس، بين التقدم المغامر والإحجام ... بين الخوف والاشتهاء، فما كان في نفسها انتقل إلى ... بينما تكاد هي تبرأ مواصلة كيّ شكها بيقين أمها: ... أن لكل إنسان مصيره الخاص به وحده دون سائر المخلوقات، وما كُتب في اللوح المحفوظ عند الله على عبود ... بالضرورة، أن يكون هو نفسه، قد كُتب على وردة، ... فإن «كل شاة تُعلّق من ساقها»... بل وراحت وردة تستبدل تخوفها من شقيقها إلى إعادة تفجير ينابيع عطفها عليه ومحبتها السالفة له، فكانت ترعاه حتى أكثر من أمها أحيانا – ولكن في النهار فقط طبعا، لأنها (جبانة) ... نصف هي نفسها، مع أنها تُدرك، في جوارحها، أن ... ليست كذلك، ونحن أيضا نُدرك ذلك، ولكن

.. إنها مجرد إجابة على الأقل، تُريح من عناء التفتيش عن الإجابات الدقيقة...

وتبقى وردة أجمل بنات عمومتي، أجمل بنات القرية، وبعد أن أصبحتُ -أنا- في الثانوية ودرستُ الجغرافيا والشِعر والتاريخ، كنت أقول لها بكل صدق: «أنتِ أجمل بنت في الشرق يا وردة»، فتبتسم، وأضيف بحماسة ويقين: «بل وفي العالم كله» فتتورد وجنتاها خجلاً لتنسحب قائلة: «سأذهب لأعِد لك الشاي»... ووردة تكبرني بكثير ولذلك، لا حرج، ولا تبدل في رأيي حتى الآن. ما زلتُ أقول لها كلما جمعتنا جلسة شاي أو مَرض عمتي أو عِيد: «أنتِ أجمل بنت في الشرق.. بل وفي العالم كله»... حتى بعد زواجها الثالث، وإذا ما عدتُ إلى بلدي وقريتي مرة أخرى سأقول لها: «أنتِ أجمل بنت في الشرق والغرب يا وردة... لم أرَ أجمل منكِ في العالم».

- 3 -

اندفع أحمد عبر بوابة الحوش العتيقة، التي صنعها جد أبيه قبل أن يقتل الضابط الإنجليزي (ابن الكلب) ويختفي حتى يوم القيامة. بوابة كبيرة ثقيلة من خشب البلوط ومسامير المَدافِع.. حتى دُود الأرض يئس من نخرها فقرض فيها قليلاً ثم انسحبَت أسرابه الصفراء إلى بوابة الجيران.

دفع فلقتها، هذه المرة، دون أن يَشعر بثقلها الذي كان يُنهك جسده النحيل عند كل عودة.. إنّ فرحته جعلته لا ينتبه حتى إلى وجودها، وصاح من عندها: أبي. فالتفت الجالس تحت النخلة كعادة أسلافه؛ إما لقراءة القرآن، وإما لمراجعة سُلّم أسماء الجدود في شجرة العائلة. كم تمنى عجيل لو أن جَده أو أباه اللّذين ورث عنهما هذه القائمة (الشجرة) قد مَدَّا تسجيل جذورها حتى أجداد عظامِ

كآشور، وحمورابي، وكلكامش، ويونس، ونوح، وشيت، وقابيل، وآدم. وألا تنتهي بعد الخمسين بلفّاف زِبه على الأوتاد.

أقبل أحمد على أبيه، وقبل أن يصل، عَرف عجيل بأن الولَد قد نجح في الدراسة أيضا، وذلك من التماعة عينيه والورقة التي يلوح بها في الهواء، فانتابته الحيرة أيضاً: كيف سيكافئ هذا الابن العاقل.. الناجح أبدا؟!... فيما مضى كان يقبّله، ويدس في كفه درهما، ثم يربّت على كتفه ويقول متخلّصاً من عجزه عن التعبير السعيد: اذهب وبَشّر أمّكَ في المطبخ... ولكن هذه المرّة الحال يختلف؛ فقد أصبحَت قامة أحمد بارتفاع قامته، ونتيجة اليوم تعني خُلاصة اثني عشر عاماً من الدراسة. دفعها إلى أبيه هاتفا: أنا الأول على طلاب المحافَظة... فاختنق الحاج بحيرة الإجابة السعيدة كاختناقه بعجز التعبير، قبل أن يصرخ في مجلس القرية «إني أعبُد وطني» وراح يحدّق في الورقة دون أن يقرأها، لأنه لا يجد ضرورة للتأكد من نصاعة قول ولده، فيقينه أبداً بأنه صادق...

حدّق إلى الأرقام الضخمة مفكراً في الرد المكافئ، فيما راح الولد يطقطق أصابعه بجذل وتَصبُّر حتى رفع الأب إليه وجهه، تلاقت عيونهما ببعضها، بتوتر المسرّة الأكبر

منهما، فمد أحمد خَده إلى أبيه كعادته السنوية كلما نَجح؛ وبذلك قد أنقذ عجيل من صمته، ومن منزلق أن يَنسى حتى القُبلة... قَبّله بشَفطَة قوية أصدرت صوتاً شبيهاً بأصوات فتح الزجاجات أو استلال أقدام مغروسة في الطين، ثم عاود التحديق إلى عينيه، مستنجداً بنفسه، عَلَّها تمده بأقوى جملة تليق بهذا الفخر... عدّل نظاراته الطبية ثم مد كفيه إلى الكتفين الضامرتين، وقال دامعاً: «أنتَ.. أنتَ ولدٌ نَشِنَن يا أحمد»، وخفض وجهه، فأبصر قائمة أسماء الأجداد ملقاة في حضنه.

التقطها بسرعة وقال: «ستكون هذه لكَ أنتَ من بعدي..» شَعر بعدئذ بالارتياح وقال:

- اذهب وبَشّر أمكَ في المطبخ.

دلف أحمد إلى المطبخ، فصَدَحت الزغاريد فيه من وردة وأمها. لَعلَعت كلمات التبريك، ولم تحتملا حبس الفرح في المطبخ، فخرجتا إلى باحة الدار ناشرتَيْن زغاريدهما في كل الاتجاهات. اِلتمّ الجيران وأبناء الأخوة والعمومة، جاء الصِبية الصغار والعجائز المتعكّزات على عصيّهن. ضَجّت الدار فأسرعَت عمتي إلى صندوقها الخاص جدا، وأخرجَت كيس الحلوى الذي كانت تحتفظ به منذ عرس قاسم، وراحت تنثرها في الفضاء، فوق

رؤوس الحشد. تدافع الواقفون وفاز بها الأولاد الصغار، ملتقطين إياها من بين انفراج الأقدام، وانهالت القُبل على أحمد من الأفواه الدرداء... وقبل أن يوشك الحشد على الانفضاض، ارتفع صوت عبدالواحد، بإيعاز من أمه التي تشاورت مع عجيل سلفا:

- اسمعوا.. اسمعوا... غدا، أنتم وكل من يشاء مدعوّون إلى وليمة عشاء.. سنذبح كبشاً.

ارتفع صفير الصغار وهتافهم. حيّا الكبار عبد الواحد وعجيلا، الجالسَ تحت النخلة مكتفيا بالابتسامة وهز الرأس... ثم خرجوا...

مد عجيل «نَشنن» أصابعه إلى بلعومه متحسسا موضع إبرة القنفذ في تفاحة آدم. شَعر لأول مرة في حياته بأن هذه الإبرة، التي لم يرَها أبدا، عزيزة.. عزيزة عليه بمَـعَـزّة التـفاحة.. بمَـعَـزّة الحياة، واستعاد ذكرى عيون أصحابه الجاحظة حوله وحول أمه حين خَطر له في تلك اللحظة: أنه ربما سيموت، بلا معركة كما يموت البعير، لأنه سمع أحد الأولاد يهمس في أذن آخر: «هل هي سامّـة؟»، ولم يلتـفت حينذاك، رغم ارتجاف القلب، لم يسأل أحدا عن ذلك، ولم يُـظهر خوفـه لأحد... وها هو الآن: رجل قد ملأ دار أبيه بسبعة أولاد تسطع بينهم وردة كالقمر. يطوقه

نجاح أحمد بالزغاريد والعيون الحاسدة.

فكّر أن الملا صالح سيضرب بأحمد مثلاً لابنه الفاشل، وربما سيتغاضى عن فداحة تعبيره في تلك الجلسة من أنه «يعبُد الوطن»، لأنه سيتأكد بذلك، وأنا مُتأكد من أنه متأكد من صدق عجيل، ومن نجاح ابنه.. الوطني...

أحمد ولَد هادئ، طَموح، كثير العزلة والدراسة. تُدلّله أمه بأن تضع على رأسه ريش الدِيكة الملون... صحيح أن أولاده لا يرفعون رأسه بالفَخر جميعهم.. وليسوا كلهم كأحمد أو كوردة أو عبدالواحد، ولكن.. لابأس، فحتى أصابع اليد الواحدة تتباين، ثم وإن كان أكبرهم قاسم هارباً من الجيش، إلا أن الجميع يحترمه لسلوكه ومنطِقه، ويحتاج الناس إليه في تصليح تلفزيون أو مذياع أو ثلاجة، أو في خط لافتة موت أو دكان أو وليمة أو شاهدة قَبر، في رسم واجهات بيوت الأغنياء والمدارس: بحيرة وبط وزوارق وشاطئ ومَنظَر غروب، فهو، حقا، نافع للناس.. و.. وللوطن أيضا، كاد ألا يقول الوطن.

طرأ لعجيل أن يستثمر أفانين قاسم، لأول مرة، بعد أن كان يحاربه فيها، يسخر منها ومنه، ويسميها «خربشات قطط». سيستدعيه، هذه الليلة، من داره، وسيقول لمن يبعثه إليه؛ أن قُل له: «إن الحاج يطلبكَ لأمر مهم»، وحتى

يحين وقت وصوله، سيفكر بشيء وطني يكلفه برسمه...

عبدالواحد، هو الآخر، «ابنٌ نَشنن»، يلتزم بالأُصول مثل أبيه: يذهب إلى المآتم والأفراح، يزور المرضى مع أمه، يجدّ في زراعة الحقل ويصاحب (الخيّرين) من أبناء جيله، ولا بأس بأن يدفعه زحف الصلع المبكر في رأسه لأن يطلب الزواج حتى قَبل أحمد.. إنه أكثر أولاده التزاما بتقاليد العشيرة وإطاعة لوالديه. أشد ما يَحذَره ويحسب له دائما في كل تصرفاته: (كلام الناس).

وإذا كان لكل فرد في العائلة، بل وفي القرية، كلمة ترتبط به بشكل ما: مثل (نشنن)، التي ارتبطت بوالده، و(أبو زاوية) بسعدي، و(لا شيء) بمحمود، و(مجنون) بعبود، و(تُـجَـنّن) بوردة، و(فنان) بقاسم، و(دِراسة) بأحمد، فإن كلمة (عَيب) هي أكثر الكلمات استخداما في قاموس عبدالواحد.. إنه أكثر إخوته حساسية تجاه الآخرين.. أما سعدي فلا يجد عجيل لوصفه تعبيرا غير استعادة جملة زوجته، التي تصرخ بها في وجه سعدي كلما أغضبها: «لو لم تكن خارجاً من بطني التي أعرفها، لقلت عنكَ ابن حرام»، ثم وردة: حنان الروح وزهرة الفؤاد.. دفء الدار والدنيا وهدية اللة...

أما محمود، فهذا الولد يُحيّره/ يُحيرنا/ يُحيركم..لأنه

غالبا ما ينساه/ ننساه/ تنسونه/ وينسى نفسه؛ ولعل أبلغ ما يقال فيه ما قاله والده: «إنه لا شيء.. هذا الولد لا شيء على الإطلاق.. إنه آدميّ بلا ظِل، ولكنه رقم في تِعداد السُكّان»... كأنه بلا ذاكرة.. كأنه بلا انفعال.. كأنه بلا رأس.. عادي جدا.. بل أكثر عادية من شخص عادي... يغيب أحياناً فلا يتنبه لغيابه أحد مثلما لا ينتبه أحد لوجوده، فهو.. حتى لا يَمرض، لا يَرفع صوتاً وليس له رغبات أو مرفوضات، لا يتحمس ولا يعترض، لا يتميز بشيء.. تنساه العائلة كثيراً/ ننساه/ تنسونه/ وينسى نفسه... لا أحد يحتاج إليه، لا يحتاج هو إلى أحد، لا يكره أحداً ولا أحد يكرهه، لا يحب أحداً ولا أحد يحبه.. لا يذكرونه/ لن تتذكره إلا عندما تراه، ثم تنساه فور ابتعاده/ لا أتذكره تماماً، ولا أجد الآن تفسيراً حقيقياً لزعمي البحث عنه في بلاد الأجانب.. هل لأنه آخر إخوته، وإن أعَدْته إلى عمتي ستفرح؟.. هل جل ما أريده هو نقل عبارة وردة إليه حين ودعتها في الليلة السابقة لخروجي: «قل له أن يصبح رجلاً يستحق الاحترام»؟.. هل لأنني لا أعرف ما ينبغي عليّ فعله في هذا الظَرف/... هذه الحياة، فأدعي بحثي عن الغائب في المجهول مع أنني في الواقع لا أبذل جهدا جاداً في ذلك.

لا أريد توصيف محمود بأنه وَهْم، فقد سبَقت لي معرفته واقعا.. إنه أعصى على الذاكرة من كل ما عَرفت، وربما في ذلك -تحديدا- ما يغريني بحلم إعادة صياغته وفق الاشتهاء... ليس فيه شيء غير عادي، ولذلك فلا شيء يرسخ منه في ذاكرتك/ ذاكرتي/ ذاكرتكم، ولولا أنه كاتن، وأنه أحد أبناء العَم عجيل، كَلّفه اسما ومعيشة، وكَلّف عَمتي حَملاً وطَلقاً ورضاعة.. لما ذكرناه.. إنه أكثر الناس جَدارة بالنسيان.. يا إلهي.. كم يصعب وصفه! .. إنه حقاً «إنسان بلا ظِل» كما يقول أبوه.. إنه بكل دِقة.. (لا شيء) حتى بعد أن ظَل يصاحب المُغني إبراهيم، ابن أخيه قاسم، إلى حفلات الأعراس في القرى المجاورة...

تقول عنه عمتي: «هذا المخلوق بلا مِلح»، وتقول وردة: «دائماً، عندما أحسب إخوتي أنساه» و«حين أغسل الثياب يُدهشني وجود جورب زائد، فأتوقف إلى أن أتذكره» و«حين أجلب الملاعق لمائدة الطعام تنقص واحدة»، فينهض بصمت وبلا انزعاج، يتجه إلى المطبخ ليجلب ملعقة، دون أن يَشعر أحد بذلك، وقد يبقى ليأكل هناك، وأحياناً يَستَل مِلعقة من جيبه... «إنه لا يغضب أبداً.. بارد.. أبرد من مؤخرة بياع عصير السوس».. إنه بلا أهمية لأحد، إنه بالنسبة لهم/ لنا/ لكم/ لنفسه/ للجميع

كأي سمكة صغيرة لا نعرفها في ظلمات قاع المحيط الهادي، مثلاً. أو.. لا أدري.. إنه حتى ليس بمجنون مثل عبود، ولا مُخنث مثل سعدي، ولا اجتماعي مثل عبدالواحد، ولا متفوق مثل أحمد، ولا فنان مثل قاسم، ولا جميل مثل وردة، ولا وطنيّ مثل أبيه، ولا صَبور مثل أمه، ولا قاسٍ مثل حسيبة، ولا مُغنٍ مثل إبراهيم ولا..... إنه إنسان بلا ظِل.. إنه مخلوق بلا ملح.. إنه لا شيء .. لا شيء.. ولكنه رقم في تِعداد السكان... فحتى قاسم الذي رسم صوراً لأشياء كثيرة: النهر، والمزرعة، والقرية، والبقر، والحمير، والدجاج، والكلاب، والأهل، والأصدقاء، لم يجد فيه ما يَدعو للرسم.. لم يجد ما يرسمه، على العكس من وردة التي رسمها سبعمائة مرة، كانت آخرها في الليلة السابقة لظهيرة إعدامه...

كائنان. فقط. مَن فَكّر في رسمهما، حاول ولم يستطع، اثنان لا غيرهما: شقيقه محمود و«القائد»... محمود لأنه لم يجد فيه ما يُرسم، أما «القائد» فلأنه لا يعرف.. بل لا يطيق أن يرسم شيئاً يَشعر بالعداء تجاهه، فكيف إذا كانت مشاعره تتفجر كراهية له؟ ولذلك فقد صُعِق من طَلب أبيه المباغت، حين بعث إليه وردة مساءً لتقول: إن الحاج يطلبك لأمر مهم. وتوجست حسيبة خيفة: أن يحاول

إعادتها للعيش معهم في البيت الكبير مرة أخرى.

توقع قاسم كل أمر، إلا أن يتعلق بالفن ومن ثم.. هذا الطَلب الغريب المُستَغرب، بعد أن أوصد الباب خلفها كعادته حين يتداول في شأن خطير: «أن يرسم صورة كبيرة للقائد»؟!. تراجع قاسم عن أبيه مسافة دهشة وهو يحدق إليه كأنه يراه مذبوحا.. أو كأنه يراه لأول مرة .. بل إنها كانت أول مرة فعلاً؛ يعترف به والدُه رساما، ويطلب منه الرسم الذي ظل يسميه (خربشات قطط) ويصِمه بالحرام.

- ها.. متى ستكملها؟. لأنني أريد تعليقها هنا في واجهة غرفة الضيوف. (واقترب من الحائط رافعاً سبابته):- هنا.. أمامي.

ابتلع قاسم ريقه وتمتم:

- أبي.. لا.. أستطيع.

صَعَدت الدهشة إلى وجه الأب:

- ماذا..؟.

طأطأ قاسم رأسه وأعاد تمتمته:

- أبي.. لا أستطيع.

تساءل الأب بحِدّة:

- ولكنك رسمت كل شيء.. حتى سابع*؟!.

لم يعرف قاسم كيف يفسر لأبيه عجزه عن رسم هذا المخلوق، فدمدم وكأنه يؤكد الحال لنفسه هذه المرة:

- أبي.. لا.. أستطيع.

اقترب الحاج من وجهه وصاح:

- لماذا؟؟؟.

- لا أدري.. لقد حاولتُ ذلك أكثر من مرة وفشلت.

- ما هذا الهراء.. أتكذب على لحية أبيكَ يا ولَد؟!.

- أُقسِم لكَ..

- لا تُقسِم، أنتَ تكذب.

صَدّقني يا أبي أرجوك.. حاولتُ ذلك عندما كنتُ في السجن العسكري، وكنت أرسم السجناء على اختلاف إجرامهم أو تجريمهم، وأرسم فأر السجن وكلابه وحُراسه.. ولكن حين طَلَبَ مني مدير السجن هذا الطَلَب ووضعها في واجهة المبنى، مقابل أن يُحسِن معاملتي ويسعى في عفوي... لم أستطع، ولم يَصدقني، مثلك الآن.. لم

* سابع: هو اسم حمارهم الذي لا يتذكر أحد كيف أُطلِق عليه، ولكنني أرجح -مع نفسي- أن هذه التسمية ربما أُطلِقت تعويضاً عن شعورهم بعدم وجود محمود (الابن السابع) ولا أستطيع أن أجزم. / المؤلف: ابن حال محمود.

أستطع يا أبي..

وتحت تأثير هذا الكشف، حارَ الأب ـ أيضاً ـ بإطلاق غضبه فدار حول نفسه، ثم صرخ بأعلى صوته المبحوح تحت إبرة القنفذ:

- يا قاسم.. أنتَ .. أنتَ لستَ ابن أبيكَ.. أنتَ لستَ نَشِنن.

اندفع الباب ووردة وعمتي لاستجلاء الصياح الذي على. أمسكَت عمتي بالحاج تُهدئه، فيما وضَعت وردة ذراعها على رقبة قاسم تسأله، وراح عجيل يبث غضبه لعمتي على مَسمَع.

- ابنكِ يا أُم.. قاسم.. يكره الوطن!.

فهبط قاسم إلى كف أبيه يقبلها:

- لا يا أبي.. لا تظلمني، أُقسم لكَ.. أنني أُحب بلدي مثل حبكَ له ومثل حب جَدي.. لكنني أكره هذا الرجل.

تساءلت عمتي:

- أي رجل؟

فأجابها زوجها:

- أسَمعتِ؟.. يقصد القائد... وما الفرق؟ القائد هو الوطن والوطن هو القائد.

- لا يا أبي.. هذا كلام التلفزيون، أما بالنسبة لي فإنني أرى العكس؛ لقد خَـرّبَ «القائد» البلد.

- يا جبان.. أتسمي هذه الانتصارات العظيمة خرابا.. أنت لستَ رجلاً، ولذلك تركتَ إخوتك في جبهات القتال وفررت إلى حُضن حسيبة.

- صَدّقني، لم أهرب جُبناً ولكن..

- ولكن أنتَ ابن كلب، ولا تريد أن يكون القائد من أبناء الشَعب، وإنما تريده.. فـناناً وإنـجليزيّا ابن كلب مثلك، أو مثل أخيكَ العار سعدي.

وهمّ عجيل بضرب قاسم بالعِقال على رأسه، إلا أن عمتي تلقت صدره باحتضان وتقبيل.

- اهدأ يا حاج.. أتوسل إليك. استعذ بالله من الشيطان.. أتريد أن تضربه وهو الآن رجل وله أربعة أبناء؟!

ظل عجيل مُحْمَر الوجه، مُهتَز اللحية، مُـهَـدِداً بعقاله، مُشفاً عن صلعته، يكرر بغضب محتدم: جبان.. خائن.. خائن.. وعمتي تتوسل:

اهدأ يا حاج، إجلس.. استرنا.. الحيطان لها آذان.

فأجلسته، وأشارت لوردة أن توصد الباب، لكنها حين

ذهبت لتغلقه، وجدت عبوداً يحبو عند العتبة فأدخلته، وأغلقت الباب، وعادت لتشارك أمها الإمساك بذراع أبيها الأخرى متوسلة:

- أرجوكَ يا أبي! لا تغضب على جاسم.

ووصل عبود متعثراً في زحفه لينكب على حجر أبيه، يمطره بالتقبيل من وجنتيه ولحيته وكتفيه، وهو يثغو مثل جَدي صغير، فأجهشت عمتي بالبكاء، وأدرَكت وردة للمرة الأولى بأن ذلك البعيد الذي ترى صوره في كل الأماكن -دون أن تكترث بوجوده-.. بإمكانه أن يُصبح مثار فِتنة بين أبيها وأخيها.. انتبهت، ولكن صَعب عليها الفهم فلجأت إلى مشاركة عبود قبلاته للحاج: لا تغضب منه يا أبي.

وعبود الذي لم يُقبل أحدا من قبل كان سبباً لتهدئة عجيل، فقد حرّك هذا الابن الممسوخ حنان الأبوة في صدره، إن لم يكن الأب في قرارته ليّنا تجاه ابنه البِكر:

- حسنٌ.. أعطيني ماء بارد يا وردة.

فهَبت بمَسرةٍ، لاكِزةً قاسم في ظَهره عند نهوضها، فعرف مرماها ودنا من أبيه بانحناءة واعتذار ليُقبل كفه، فتركها الأب له قائلاً:

- أغرب عن وجهي الساعة.

نهض وخاطب والده برجاء:- «أعدك يا أبي بأن أرسم لك رسماً يُرضيك»... وخَـــرج.

- 4 -

قصَد قاسم شاطئ دجلة كعادته حين يود التأمل العميق في أمر عميق... فهناك أمضى يوماً يمسد الرمل، حالماً بذراع حسيبة البيضاء عندما رآها ذات فجر أبيض، وهناك كان يكمل النقص في أذنه من غرين الشاطئ ويتمرآى في البِرك، وعلى الرمل أيضاً أبدع الخط القاسمي وعلى الحصى قرر الفرار من الجيش وعدم الاشتراك في الحرب، وتأكد من اقتناعه في أن يُقتَل خير له من أن يَقتُل، وهناك حدثني عن ذلك قبل أن يعدموه وسط ساحة القرية، وإلى هناك يتجه الآن ليفكر في رسم.. وطني يرتق به ما تفتق في علاقته مع أبيه.

أثناء مروره بحقول الذرة رأى أخاه سعدياً ومجموعة أولاد يتقافزون بين رماح القصب، فصاح به: «ماذا تفعل هنا؟» فرد سعدي بجوابه المعتاد: «ألعَب» وأمره بالذهاب

إلى البيت، ثم مضى بلا استعداد للاستماع إلى رد أخيه أو للتأكد من تنفيذه لأمره، فلم يعد خافياً على أحد سلوكه بعد أن رآه أكثر من شخص في القرية وهو يرفع ذيل حمارة على كتفه، في وادٍ أو في حقل، مُشمراً عن دشداشته، محتضناً قفا الدابة وهي تفتح فكها وتغلقه بآلية ورغو لعابها يسيل، فيما تصفع شموس ظهيرات الصيف زاوية رأسه، ولا يبالي بها، ولا بكلام الناس، أو كلام إخوته وضربهم له وربطهم إياه أياماً على جذع النخلة في جنوب الدار، وتهديد أبيه له بالذبح، فقد ظل يخرج «للعب» مع الأولاد في الأودية والأدغال وأخاديد الجبل وأركان البيوت المتهدمة.

حين يأتي سعدي لزيارتنا، كنتُ أنظر إليه طويلاً لأطابق ما أسمعه عنه مع هيئته فأجده إنساناً عادياً مثل كل الناس لولا الزاوية الغريبة في آخر رأسه وابتسامته البلهاء. صعب عليّ كثيراً أن أتخيل ما قيل عنه إلى أن وجدت نفسي في فخّه عند قيلولة أهلنا في ظُهر يوم تموزيّ. لم يكن سوانا؛ أنا وهو، في مخزن الأشياء التي يركنها أبي للغبار، ويقول للمستقبل.

كنت أصغر من سعدي، وألهاني اللعب معه عن النوم والشمس، حتى فاجأني بمد يده إلى خصيتيّ، فأجفلني الحدث وتراجعت حتى التصق ظهري بزير الماء المهمل

في الركن المعتم، بينما ظل وجه سعدي بلا انفعال، صورة ثابتة. كما هي ابتسامة بلهاء وملامح ميتة... أخذ يقترب مني ببطء، فوددت لو أستطيع الصراخ كي أوقظ أهلي، أو أنبّه كلبنا اللاهث في الظل، لكنني كنت أشعر بالاختناق.. وحين فكرت في رفسه والانقضاض عليه ضربا، ثم الخلاص... تأكدت لحظتئذ أنه يكبرني كثيرا، فقد كان جسده يسدّ مربع ضوء الباب من ورائه.

وضع كفه على كتفي فارتعدتُ، ثم نفضتها عن كتفي حين تذكرت بأنني في بيتنا، وليس في بيتهم أو أي مكان آخر... همس لي: «لا تخف.. أريد أن نلعب لعبة الدجاجة والديك، العروسة والعريس، النعجة والكبش، الكلبة والكلب، الحمارة والحمار... وهكذا مثل كل شيء وسوف تكون أنتَ الديك والعريس والكبش والكلب والحمار».

ووجدتني أطرح عليه التساؤل الذي كان ينتابني حين أسمع عنه: «ولكن أنت حمار وأنا حمار... أقصد أنتَ ولَد وأنا ولَد؟» فأجاب بثقة: «لا عليك سأعرف كيف أكون حمارة.»

كان صوته دبقاً، شهوانياً، مقززاً وأنفاسه تفعم جو المخزن رطوبة ولزوجة، فهززت رأسي رافضاً. قرّب فمه من أذني/ قَرَف/ وقال:

- «إن لم تفعل سأقول لخالتي أمك بأنك تريد أن تفعل بي مثل الحمار والحمارة.»

تشنجت جلدة رأسي وهتفتُ:

- «لا.. لا».

- لأنني لا أعرف ماذا سيحلّ بي لو علمت أمي بشيء كهذا.. أو أبي أو أي إنسان... ولا أدري كيف قرأ سعدي تخوفي، فانحنى من فوره أمامي رافعاً أذيال دشداشته، حتى لـفّها تحت إبطيه، فوجدت نفسي، لأول مرة، أمام مؤخرة إنسان عارية.. هـالني كبرها وهي تسدّ العالم أمامي.

كنت أنظر.. ولا أنظر، حتى سمعت صوته يأمرني.. أو يتوسل من رأس لا أراه: «هيا.. هيا» وراح يهتزّ وحده بعد أن وزّع يديه: واحدة هناك.. تحت مع الرأس المتدلي، يهزّ بها شيئاً بنشوة وعذاب، ولفّ اليد الأخرى على ردفه ليسحبه فاتحاً إليته أمامي. صاح: «هيا» فدنوت بخوف ونظرت الى أسته والداخل الأسود المشعِر. فكرت في أن الناس تستر هذه البقعة لقبحها، واستغربت أن لا تتعفّن وهي لا ترى الشمس أبداً؛ ملفوفة -هناك- تحتهم/ بينهم/ فيهم.. تحتنا/ بيننا/ فينا.. على الدوام.. ربما قلت: إنه اللحم المتعفّن فينا.. إنه مصدر كل عفونتنا...

ازداد سعدي اهتزازاً ولهاثاً واحتداماً وهو يأمرني بتقطع: «هيا.. بسُـ.. ر.. عَـة.. ولو.. بإ.. ص.. ب.. عك».

لقد أسعفني ـ فلا عِرق تَوَتّر غير أعصاب المفاجأة والارتعاب. رفعت كفي بتردد، وأفردت إصبعي الوسطى أمام سواد مؤخرته.

كانت يدي ترتجف وجسدي يتفصّد عرقاً وسعدي يهتز ثم صاح: «هياااا». فغرستُ يدي في ظلمته السوداء على عجل، ثم ولّيت نافذاً إلى خارج المخزن. تعثرت عند الباب، ولكنني وصلت بساط الشمس. نظرت إلى إصبعي التي كانت لا تزال منفردة، فتقلبت أحشائي واجتاحني غثيان كريه حين وجدت إصبعي مغمسة بالغائط حتى منتصفها فتقيأت.. هووووووع..

لا أحد يعرف كيف أصبح سعدي فيما بعد من أضلاع القيادة!.

تقيأتُ ورحت أمسح إصبعي بالتراب وبالحائط، ثم زحفت إلى حوض ماء الدجاجات وغسلتها فيه كثيراً كثيرا، وخرج سعدي بدشداشة كاملة وابتسامة بلهاء وملامح ميتة، لوّح لي برضى وابتعد يحمل زاوية رأسه العجيبة... حرصت بعد ذلك أن أبتعد عنه متحاشياً دون

أن يغيّر هو من تعامله معي أو مع غيري، كان بلا محاذير حتى مع أولئك الذين امتنعوا عن [illegible] وردة بسببه؛ خشية أن يأتي أبناؤهم كخالهم سعدي أو خشية أن يتغامز الناس من حولهم ويتلامزون... ووردة وحدها دون كل الناس كانت -مثلي- سابقا، لا تصدق الأمر.. بل وتمنع نفسها من سماعه، فتغضب على من يهم بأن يروي لها... وحين تقدّم فوزي لخطبتها اشترطت عليه أن يحصل على موافقة أخوتها الستة بعد والديها بمن فيهم سعدي وعبّود، ففعل فوزي غير آبه بنهي عائلته وأصحابه وتغامز أهل القرية.

كان مشدوداً إلى سحر وردة، ومدفوعا بتراكمات صور الأفلام الهندية التي لم تفته مشاهدة أحدها منذ الأفلام المصوّرة بالأسود والأبيض حتى الحديثة منها إذ يكتشف البطل، في آخر الأفلام، أن التي كان يحبها هي أخته التي ضاعت في الفيضان، أو في مجاري نيودلهي منذ عشرين عاما، وذلك حينما يبصر على كتفها الوشم المماثل للوشم المطبوع على كتفه بعد أن يزيح عنها ثوب العرس. وكان الناس يرقصون ويدبكون في الخارج وتتعالى الزغاريد على صرخات الصبية لتنافس أصوات رصاصات بنادق أبناء عم العريس، بينما رفضت وردة الذهاب معهم إلى بيت

عريسها قبل أن تتحدث مع قاسم على انفراد، فاستجابوا بلا تساؤل وأوصدت عمتي الباب عليهما بعد أن ذكّرتها بأن تُسرع...

جلس قاسم أمام وردة وهي في ثوب عرسها. كانت أجمل من لوحات عصر النهضة في أوروبا ومن نساء قصور القياصرة والملوك.. قمر في ثوب عرس، أو كائن من حلم.. فحتى جدّيتها عند التحدث لم تخفف من سلطة جمالها الأخّاذ.

قالت:

- «قاسم.. أخي العزيز.. كيف يُخرّب رجل بعيد غريب علاقتك مع أبيك وأنت فلذة كبده؟»

نهض قاسم نافخاً زفيره:

- «آوه، يا وردة.. ليس هذا بالوقت المناسب لهذا الهراء».

نهضت ووضعت كفها البيضاء على ذراعه:

- «لن أذهب قبل أن أعرف».

دار قاسم حول نفسه وحولها:

- «أ أنتِ مجنونة يا وردة.. الناس تنتظرك في الخارج.. دعي الأمر لوقت آخر.»

- لا.. الآن.

- الأمر ببساطة هو: أن أبي يُصدق التلفزيون ويعتقد أن «القائد» يبني الوطن، فيما أرى أنا عكس ذلك.

- كيف؟

- يا وردة..!

- كيف؟؟

- أبي يعتقد أن المكان أغلى من الإنسان وأنا أعتقد العكس. و«القائد» يستغل هذا الاختلاف ليضربنا ببعضنا دون أن تهمه أرض أو إنسان... فلا شيء في هذا العالم أهم من الكرسي عنده.

- ولكن هو لا يعرفكما.. دعوه في كرسيه وتصالح أنت وأبي.. لقد أقلقني منذ تلك الليلة هذا الحضور الطاغي لذلك الغريب البعيد الذي لم أكن أنتبه لوجوده.. من هو يا قاسم؟

- إنه كائن دموي يا وردة.. يعني حَنفيش، سيُهلكنا إن لم يُنقذنا منه رجل آخر.

- من ذلك الآخر يا قاسم؟

- لا أدري ولكنه حتما.. سيكون رجلاً يستحق الاحترام.

- هل تعتقد بأن فوزي رجلاً يستحق الاحترام؟

- أوهوووه... يا وردة ... دعك من هذا الكلام الآن... الناس في الخارج ينتظرون. سنتحدث فيما بعد.

نظرت وردة في عينيْ أخيها عميقا، فانحنى على جبهتها وقبّلها قائلاً:

- مبروك.

دمعت عيناها، وتوهّج العرس في الخارج، في حين سارع قاسم مارقا من تحت الرصاص لكي يلوذ بشاطئ دجلة، يفكر في رسم لوحة.. وطنية لأبيه ولوردة.

- 5 -

لازال صدى أزيز الطَلقات في أذنيه على الرغم من وصوله رقرقة الشاطئ، وقال: «حتى تعبيرنا عن الفَرح.. تعبير قتاليّ مُسَلَّح». قَرفَص، حَفن الماء، ورشق به وجهه، ثم مسح رأسه وأذنيه ورقبته، عسى أن تُذهب لسعة برودته ذاك التوتر. انتقل إلى صخرة قريبة، جلس عليها ودلّى ساقيه في الماء، محدِّقا إلى وجه النهر، ومرسلاً نظراته حتى تلك الجزيرة الخضراء في منتصف النهر (الحويجة)... عليه أن يتأمل الحال من جذوره، فإن أراد رملاً صافياً أنزل ذراعه في الشاطئ حتى المرفق، وقبض على القاع ورفعها ليشاهد رملا مغسولا نقيًّا بين أصابعه، كذلك عليه أن يفعل في تأمله: أن يغرس تركيزه وصولاً إلى البدايات، ولو منذ أن أعلن «القائد» الحرب ارتجالاً أمام مجلس برلمانه الذي يَعرف سلفا، بأنه موافق، لأنه قد اختار أعضاءه

بمواهبه نيابة عن الشعب، ولم يدر بخلد أحد ممن يعرفون الحال، والكل يعرفها، أن يعترض نائب قروي لا يُحسن القراءة والكتابة.

كانت دهشة «القائد» تعادل دهشة العالم كله حين رأى كفًّا ترتفع للاعتراض... قال النائب القروي، على مسامع الحَرس والنواب، وليس التلفزيون، أن خلافاً حدودياً مع الجيران لا يعني بالضرورة حربا، وإلا فإن كل دول الأرض لديها خلافات على الأرض. أنا وجيراني نرفع الحائط بيننا أحيانا، ونخفضه أحيانا أخرى، ونزرع على رأسه شظايا الزجاج أحيانا، ونزرع الورد أحيانا أخرى، ولكننا لم نتذابح، لأن الجيران أهل، والحرب كلها كريهة، والمنتصر فيها خاسر...

ربما لم يقل ذلك تحديدا، ولكن هذا ما تناقله الناس صياغة وأمنية، ولا بد من أنه شيء كهذا، ولا دخان بلا نار كما تقول حكمة العجائز. قيل إن «القائد» رحّبَ بالرأي وكان ديمقراطيا، فدعا النائب القروي للتشاور برأيه جانبا، وأخذه إلى غرفة جانبية في قاعة المؤتمر. ربما كانت غرفة الحمام، حيث سمع السادة النواب خلف بابها اختناق طلقة مسدس خرج على أثرها «القائد» يسأل عن آراء مخالفة أخرى، فلم يجد، فأعلن الحرب باسم

الشعب ونوابه... وأخذت الحرب إلى خنادقها: قاسم، وعبدالواحد، وسعدي، وجعفر، وسميط، وفارس، وفوزي، وعلي، وغازي، وعبد، وخضير، ومحمد، وكاظم، وحسين، وعمر، وأمين، والنخل، والنفط، والمدارس.

سمعنا بالانتصارات وارتفاع الأعلام فوق الأراضي المُحَرَّرَة، التي اتسعت مثلما اتسعت مقبرة قريتنا بفضل جثث أبنائها الملفوفة بأعلام الوطن وأعلام أخرى ترفرف فوق شواهد القبور، بحيث استحالت مقبرتنا القديمة إلى غابة من الرايات، تنوح تحتها الأمهات كل خميس، وراح التلفزيون يعيد عليهن تمثيلية الخنساء ست مرات في اليوم: قبل الأكل وبعد الأكل، وحين فرّ قاسم من الجبهة. تبعه سعدي قائلاً: «ليست حلوة»، ثم تلاهما إسماعيل بأكثر من مبرر كاذب.

شرع التلفزيون بإمطارهم بآلاف أفلام الكاوبوي، إذ الرجولة والقتل أيسر من تقشير الموز... وعندما طالت الحرب أعواما، وتذمّر بعض الشيوخ حول دلال القهوة من عودة عبء العوائل على كواهلهم المُغادِرَة، كان الحاج عجيل يُعيد على مسامعهم كل تصريحات «القائد»، وفوائد الحرب، ويصف لهم حلاوة النصر الذي سيأتي بعد طول الصبر... مهما يطول!!، وأضافت الحكومة قناة تلفزيونية

أخرى مخصصة لبث أفلام الكاوبوي وتمثيلية (الخَنساء)، ومسلسل (حرب البَسوس)، تتخللها بين مشاهد وأخرى صور «القائد» الذي أهدى لكل مواطن فينا تلفزيونا يعمل بالطاقة الشمسية إذا ما انقطعت الكهرباء، وتبرّعنا، نحن التلاميذ، بدمائنا للجرحى، وتبرّعت النساء بذهبهن لشراء الأسلحة ولصنع أوسمة الشجعان من الذهب وتماثيل «للقائد»، وتطوع الشيوخ للقِتال، وفي مقدمة تظاهراتهم، التي نظّمها الحزب يهتف الحاج عجيل فشكرتهم القيادة ووافقَت، بعد إلحاحهم ورفعهم سيوف الأجداد والفالات، على أخذ القادر منهم في قواطع الجيش الشعبي، وأقسَم الشُعراء بحياة «القائد» ثم باللهّ على: أن النصر لنا، مهما طالت الحرب.

وترنّمت حناجر المغنيين بالألحان تغزُّلا بعضلات «القائد»، وعظَمة شاربيه، رمز ميزان العدالة وبدمه النبوي وعبقريته الفريدة: فهو الملهم... العارف بكل شيء؛ ابتداءً بضرورة فرشاة الأسنان للشعب ومجلده الضخم حول فوائد المراحيض، وبلا انتهاء عند صواريخ الفضاء والوعد بتحرير كل أراضينا التي سلبتها الإمبريالية؛ في المريخ وفي القمر، ذلك أننا أول من عَرف القمر في العالم، والدليل على ذلك أن شاعرنا قيس بن الملوح في ليلى العامرية، تلك الأشعار

التي لم تسمو على بلاغتها إلا كلمات «القائد» حين قال. وكتبوا فيما بعد عبارته بالذهب والدم: «الأرض بحاجة إلى الدم كحاجة النساء إلى صبغ شفاههنّ بالأحمر»... وعضّت سمكة إبهام قدمكَ يا قاسم، فقفزتَ وصحتَ بالأحمر «وجدتها» حين وجدتَ الوطن مغطى بالأحمر، وعالم الشقراوات من حوله أخضر وقلبك أخضر والوطن في قلبك..

ركضتَ.. ركضتَ.. ركضتَ.. إلى القرية.. إلى بيتكَ.. إلى حجرة الرسم، دون طعام حسيبة، ورسمتَ على أكبر لوحة عندك خارطة الوطن بالأحمر، أحطتها بدائرة قلب أخضر، ثم رسمت النهرين بالأبيض. كنتَ ترتعش حُباً وأنت تنزل متمايلاً مع تعرّجات النهرين المتدفقين من الشمال إلى الجنوب، وحين التقيا في الشط المُتذابَح حوله بكيتَ.. بكيتَ حتى كاد أن يُغمى عليك، فسقطتَ مقعياً أمامها، وأنت تُبصر من وراء دمعك أن اللون الأبيض كان يجري فيهما ماءً.. بل دمعاً.. لماذا النهران تحديداً!!؟

وددتَ أن تُسميها.. أن تصف تعانقهما أو أن تصف هذا الشعور الذي هزّك وأنت تخطّها.. يهزّك وأنت تحدّق إليهما، ويصرعك حُبّا وعذابا حين يلتقيان. كأنهما قد مرّا

في أنحاء جسدك ثم التقيا في سويداء القلب. (هواك أنت يذكرني بفرات ودجلة يومياً.. مثل قلبي ومثل قلبك تلاقن صافية النيّة).

جاءت حسيبة لتدعوه إلى تناول شيء، ففغرت فاها حين رأته ساقطا على الأرض، ملطَّخاً بالأحمر والأخضر والأبيض، كأنّه ملفوفٌ بعلم، مثل كل الذين عادوا من الحرب في توابيت النصر، فشهقت وهرعت إليه ترفعه من إبطيه حتى وقف فاحتضنته بأصباغه، وانتحبت على كتفه عند بداية الأبيض.

ضمها قاسم إلى صدره وهو يتأكد من أنه يحبها إلى الأبد، متخيلاً دمعها يسيل على الأبيض مع قامته، أو مع الأبيض على قامته، وينزل إلى الجنوب ويتلاقى عند أقدام الوطن، أو قلبه.. كله وطن.. حمله بين ذراعيه وطار إلى أبيه بجذل.

دفع البوابة العريقة، دون أن يشعر بثقل فلقتها المطرزة بمسامير المدافع، ولوّح بالصورة لأبيه الجالس تحت النخلة، تماماً كما لوح له أحمد بالشهادة، فرفع عجيل نظاراته الطبية ومرّ اللعاب الذي ابتلعه تحت إبرة القنفذ، وابتسم لقاسم أو الوطن في القلب أو النهرين في الوطن في القلب، وقاده إلى غرفة الضيوف ليعلقها هناك في الواجهة، كما أراد، أمامه

أو أمامهم، ووقفا أمامها واصطفت من خلفهما عمتي، ثم تبعها أحمد وسعدي ومحمود.. وعبود.. والصمت الذي لم يَشعر به قاسم، كما لم يشعر بطول الوقوف.. فقد كان فيّاضاً بالرضى وهو ينقل بصره بين خارطة الوطن ووجه أبيه.. إلى أن أقلقته تقطيبة جبين، وزمّة شفاه، وصعود تفاحة آدم دون نزول في عنق الحاج.. حتى قال: «تماماً يا قاسم.. هذه صورة نَشِنَن.. ولكن..».

رفعَت عمتي كفها إلى صدرها توجسا. حدّقت عيون الأبناء باللحية البيضاء حتى قالت بعد برهة: «لكنك قَلَبتَ.. عَكستَ الألوان..»، ثم سكت قبل أن يستجيب لنداء ترقبهم ويكمل: «كان المفروض أن تجعل لون الوطن أخضرَ، ولون القلب أحمرَ، كما هما في الحقيقة والواقع.» فكاد قاسم أن يجيب بعد أن اضطربت أنفاسه، إلا أنه تمكن من كبح رغبة الإيضاح بصعوبة، لأن ذلك سيعني القول؛ إنه يرى «الحقيقة والواقع» عكس ما يراها أبوه.. فلاذ بجواب آخر: «معذرة يا أبي فبحُكم معرفتي بالرسم وما يجب استخدامه من ألوان، وجدتُ لو أنني بدّلتُ فيها غير ما هو عليه لاختلّ توازن اللوحة» ثم أضاف «إن أصول الفن تتطلب.. ذلك» وكان يعني في قرارته كلمة «الصدق»، ولكن ضرورات الموقف

أجبرته على استبدالها بكلمة «ذلك»، فرَبتَ الأب على كتفه وقال: «المهم أنها صورة الوطن».. فردد قاسم بعده بخفوت وحسرة: «نعم إنها صورة الوطن.»!!.

- 6 -

اشتدّ حَرّ الصيف واشتدّت الحرب ضراوة، فأعادَت إلينا قوافل من شباب القرية في توابيت وأعلام وأوسمة شجاعة، ولتعويضهم، قامت الشرطة بحملة كبيرة للقبض على كل الهاربين، فأخذت قاسم وسعدي وإسماعيل وكامل ونوري وشيت، وألقت بهم وراء قضبان السجن العسكري في قاعات طويلة كانت مرابط لخيول الإنكليز قبل الاستقلال، وفي كل قاعة كان أحد أبناء الحاج عجيل مركزا للاستقطاب، ولفت النظر حتى قاد ذلك، فيما بعد، إلى عزلهم في زنزانات منفردة، فبينما كان قاسم يجمع من حوله سجناء قاعته، ليرسمهم في أوضاع متباينة، وليخط لهم بالوشم عبارات الحب والحرية والعذاب على أذرعهم وأكتافهم والصدور، كان سجناء قاعة سعدي ينتقون أفضل مفروشاتهم، ليرتبوها تحته في محاولة منهم؛ كي

يستعيدوا معه ليلاـ بعض دفء فرش زوجاتهم، وكان الحراس أول من يرسمهم قاسم وأول من يفترشوا سعدي.

وحين علم المدير بالخبر، أمر قاسم بأن يرسم صورة لـ «القائد» فلم يستطع فعزله، وأمر سعدي بأن يكف عن تَسهير السجناء فلم يستطع فعزله، إلا أن سعدي كان يخلع سرواله ويصعد على صفيحة الفضلات في زنزانته، واضعا مؤخرته في النافذة الصغيرة، التي تفصل بينه وبين سجناء قاعته ليصعدوا هم بدورهم وينالونه من هناك.

حين علِم المدير بذلك، أظهَر غضباً عارما، ونقل سعدي إلى حجرة خاصة ملاصقة لمكتبه تتوفر فيها سبل الراحة!! للسجناء المتميزين، وقيل فيما بعد: أن ثمة باباً سرّياً ضيّقاً، كان يربط بين المكتب والحجرة، يغطيه من جانب المكتب دولاب خزانة الأضابير، ومن جانب سعدي خزانة الملابس الداخلية ومنها: حمالات أثداء وقمصان نوم نسائية حمراء، ولم ينفِ سعدي تلك الأقوال لاحقا، ولم يُفصل في التعليق عليها بأكثر من ابتسامة بلهاء وملامح جامدة وترديد عبارة: «ياه.. كانت ذكريات حلوة مع السيد المدير!»، ولم يقل لقاسم بأن، لولاه لما اكتفى السيد المدير بعزله وإنما لأهلَكه تعذيبا.

اشتدت الحرب، فأصدَر «القائد» بعد أشهر مكرمة

إعفاء السجناء العسكريين من العقوبة وإعادتهم إلى وحداتهم، وإعفاء السجناء السياسيين من الحياة، وإعادتهم إلى بطن أمهم الأرض بعد أن تحبَل بهم الثلاجات مدة تُمكّن أهلهم من دفع تكاليف حبال المشانق، التي كلّف استيرادها ميزانية الدولة عُملة صعبة.

وفي أول إجازة لسعدي -بعد العفو- طلبَ من أمه أن تَغزِل له حَبلاً ليضعه في كتفه مثل العريف ففعلت عمتي مسرورة، ظنّاً منها بأنه قد رُقيّ إلى رتبة ما في الجيش وأنه سيواصل خدمته، إلا أن ذلك لم يحدث، فبعد أكثر من تجربة ناجحة لانتحال رتب الضباط والمراتب الأخرى، ضجر سعدي من الحياة العسكرية لأنها «ليست حلوة» وفرّ إلى حقول الذرة حيث الأولاد والحمير واللّـذة، كما هرب قاسم بعد أن شاهدَ مدناً وقرى مُخرَّبة، ودخلَ في بيوت هُجّر منها أهلها، فرّوا تاركين أقداح الشاي حتى منتصفها، وصوراً تحدق بمرارة، ثياب العرس وراء الباب.

وتمكّن قاسم من حضور عرس ابنته شيماء؛ تلك الفتاة النحيلة الرقيقة المستكينة خلاف أمها، وكانت فرحته بزفافها فرحة حقيقية، لم يشعر بمثلها منذ زفافه وحسيبة، التي كانت تخشى من أن تفتك الأمراض بابنتها قبل الزواج، فلم تتمالك نفسها من الرقص وهي تراها في

ثوب العرس الأبيض.. صغيرة، جميلة مثل دمى الأطفال، تتشبث أناملها بمرفق عريسها البدين الذي يكاد شحمه أن يُفتق أكمام البذلة ويقطع أزرارها، وهو يمسح العَرق المُتصبِب من جبهته المُحمّرة ورقبته الغليظة.

كان الحَرّ شديدا والحرب شديدة، فشكّلت الحكومة لجنة من خبراء غلاظ الرقاب والأكباد لتقدير العوق البدني والنفسي والعقلي، الذي سيتم بموجبه إعفاء المواطن المعاق من أداء الخدمة أو زجّه فيها، وستقوم هذه اللجنة بإعادة فَحص كل مجانين الوطن الأعزاء، بمن فيهم عبود عجيل الرملي، الذي وضعته الشرطة في قفص سيارتها بعد أن انتزعته من أحضان عمتي الباكية المتوسلة بهم:

- «والله العظيم.. الولَد مخبول.. مسكين».

حاول الحاج عجيل طمأنتها بالقول: إن ما يفعلونه مجرد اختبار بسيط وسوف يعيدونه، مع أنه كان في قرارة نفسه يود لو أنهم يأخذونه إلى الجيش، لأنه يعتبر الجيش مصنع الرجال، فعسى أن يسوي من حال ابنه ويسد به ثغرة تركها سعدي أو قاسم. وعلى امتداد الطريق كان يروي للشرطة عن حياة عبود منذ أن وُلَد جميلاً ضاحكاً وروى لهم، بفخر، حكاية جدّه الذي طعن الضابط الإنكليزي «ابن الكلب» وقال لهم؛ إن له ولداً آخر اسمه أحمد، هو

الأول على الجامعة في دراسة القانون، وستنصبه الحكومة قاضياً، وابناً آخر اسمه عبدالواحد في خط النار الأمامي.. ولم يذكُر لهم شيئاً عن سعدي أو قاسم أو محمود، وأعاد ما قاله لهم على مسامع اللجنة، حين مثل بين يديها ساحباً عبود من ياقته، بعد أن أنهكه الوقوف في طابور آلاف المعاقين والشمس..

قال خبير ذو صلعة كبيرة لعبود زاجراً: «ما اسمك؟»، فجفل عبود ولم ينبس بكلمة. أعاد عليه والده الطلب مُذكراً إياه بالأسماء التي كان يُحفّظها له تحت النخلة، فراح عبود يعد الأسماء لوالده حتى الجد العاشر، فقال له الأصلع: «عُد لنا من الواحد إلى العشرة»، فتهلل عبود بلعبة السجع التي علّمها له سعدي وأولاد القرية وراح يعد للأصلع، وهو يبتسم متغنياً بالقوافي المرتبكة للكلمات: «واحد.. يَركَبكَ عبدالواحد، اثنين.. يركبك عمي حسين، ثلاثة.. في مؤخرتك شعاثة، أربعة.. يركبك مدير المطبعة، خمسة.. بِكَ أدمسه، ستة.. بكَ.. بكَ...».

لم يعبأ عبود بصراخ أبيه الذي طفق يحاول إيقافه: «عيب يا ولد.. يا ولد اسكت»، وحاول أن يُذكّره بالمقاطع التي حُفّظها له من النشيد الوطني.. فلم يسكت «سبعة.. بِك أطبعه، ثمانية.. يَركبك مدير ألمانيا، تسعة.. أبوك يبلعه،

عشرة.. بكَ أحشره»، ثم قفز وهو يصفق بنشوة كما كان يلعبها مع سعدي وأصحابه.

لم تأخذ اللجنة بهذا الهَبَل كدأبها مع الآلاف ومنهم، من أجاد أداء أعقد أدوار الهستيريا والجنون أملاً بالخلاص، على الرغم من أنهم قد لاحظوا بوضوح كثافة حاجبيه وبروز جبهته وبوزه وغرابة أطرافه ولونه الأربد، إلا أنهم أحالوه، مثل الجميع، إلى غرفة التعذيب التي يطلقون عليها تسمية «الغربال»، والتي ضعف فيها أعتى المدّعين تحت لسع ضرب أسلاك الكهرباء الغليظة، فكان عبود يقهقه لوقع الجلدات الأولى على جلده، بينما أدار والده وجهه عنه تألماً بعد أن رأى الدم، دم ابنه، دم دمه... وتعالى الصراخ بعد لحظات فهزّ الجميع.

كان عواءً ذئبياً متوحشاً.. ذئبياً تماماً أخاف الجلاد نفسه، فتأكدت اللجنة من جنونه، ودفعت به مع والده إلى الرصيف، حيث استنجد عجيل ببعض المارة من «أولاد الحلال» كي يرفعوا معه ابنه في كيس إلى حوض سيارة أجرة، أعادته إلى عمتي الجالسة أمام بوابة خشب البلوط تنتظرهم تحت الشمس، وكانت المفاجأة أكبر حين نهضت، وتقدمت فاتحة ذراعيها لتستقبل عبودها المحمول من إبطيه بين السائق وعجيل وإذ بوردة تُقبِل راكضة لترتمي

في أحضانها... بصمْت.. خائرة القوى، مصفرة الوجه، منفوشة الشَعر وناشفة الحلق.

ترك عجيل الولَد في يد السائق وهرع إلى وردة يسألها، فشهقت ثم انفجرت بالبكاء على صدر عمتي متمتمة: «فوزي مات يُمّه» فصاحت عمتي معها «يَبوووه يا مَكرودة يا أُم جاسم».

تَسمّر الحاج عجيل في مكانه لبرهة، ثم التفت إلى السائق وقال: «زوج ابنتي استشهد في الحرب دفاعاً عن الوطن»... ومع أن وردة قد أنجبت لفوزي طفلة بجمالها وأصرّت على أن يكون اسمها وردة أيضا، وتركتها له عند أهله.. إلا أنها لم تتمكن طوال فترة زواجها من أن تعرف: هل كان فوزي رجلاً يستحق الاحترام أم لا؟!.

كانت تسعى لمعرفة ذلك وفق ما قاله قاسم عن الرجل الذي يستحق الاحترام. وهذا أشد ما يؤلمها في رحيله فربما كان رجلاً يستحق الاحترام... لم تعرف.. ولم تكفها الأيام السبعة من كل شهر في إجازته من تحديد خصائصه بدقة... كانت الحرب تأخذه أكثر منها.. حتى أخذته.. إلى الأبـد.

- 7 -

الهجوم الذي سقط فيه فوزي هو الهجوم نفسه الذي سقط فيه عبدالواحد، ولكن وصول فوزي إلى القرية ملفوفا بالعلم، ومصحوبا بوسام الشجاعة، قد سبق وصول عبدالواحد ملفوفاً بالعَلم، مصحوباً بوسام الشجاعة الذي سلّمه المسؤول الحزبي ومدير الشرطة إلى الحاج عجيل ببالغ الاحترام والانحناء، قال الأول: «مبروك استشهاد ولدكم» وأضاف الثاني: «كان بطلاً شجاعاً روى بدمائه الزكية تراب الوطن الغالي».

لطّخَت عمتي وجهها بالسخام، وهالت رماد التنور على رأسها وخارت في الأرض مثل شاة ذبيحة. حاول عجيل تذكيرها بتمثيلية «الخنساء»، إلا أنها غابت عن التذكر، وتعالى صراخ النساء في مندبة ملأت فناء الدار، وناحت عجائز بأبيات حزن قديمة:

«ليت العُمر ما طال يقصر عسنّه
يخلص لأنه همـــوم ونّة على ونّة»

لم يفهم عبود شيئاً فعوى، وربت الملا صالح على كتف الحاج عجيل وقال كأنه يُلقنه: «قلْ إنّا للهّ وإنّا إليهِ راجعون» فرددها عجيل وأضاف: «أرأيت يا ملا؟؛ عبدالواحد ولد نَشنن»، فرمقه الشيخ باستغراب ثم ابتعد عنه هامساً: «أستغفرُ اللهّ».

بكى قاسم بمرارة وقال لشاطئ النهر: «لقد سفحوا دمك يا ابن أمي بلا معنى... إلهي.. ما أوجع ذلك!» بينما كان سعدي يركل رماح القصب ويضربها ببعضها صارخاً: «أحمق.. غبي.. مغفل.. عبدالواحد مغفل». ثم بكى ونام هناك أياماً.

خَمّشت وردة خديها، شَقت ثوبها وارتدت الأسود، وودت لو تعوي مثل عبود، لكن صراخها على فقيدين أفقدها صوتها طويلاً، ثم تزوّجت من عقيل ثم طلبت منه الطلاق بعد أن تركت له طفلة بجمالها، أصرت على أن يكون اسمها وردة أيضا... حاول عقيل ثنيها عن عزمها على الطلاق، فلم تستجب، فاستجاب لها لأنها لم تعد تطيق العيش معه بعد أن اكتشفت بأنه رجل لا يستحق الاحترام، لأنها حين طالبته بتوضيح موقفه تجاه ذلك

الغريب البعيد، قال: «من يأخذ أُمنا يصير عَمنا.. دعينا بسلام»، فرمت عليه السلام وخرجت عائدة إلى بيت أهلها، عاقدة العزم على ألا تتزوّج للمرّة الثالثة إلا رجلاً يستحق الاحترام، وفتشت عنه حتى في المدينة عند ذهابها لزَفّة أحمد الذي تزوّج من المدينة «أجنبية»، كما تقول عمتي التي آلمها ابتعاده عنها، إذ استقر هناك غائباً في وظيفته وامرأته وأولاده الذين حُرموا من حلم تربيتها لهم، وكان أكبرهم طفلاً بالغ الذكاء، فاز على الجميع في لعبة الشطرنج حتى جده ووالده وعمه قاسم، فمنحته عمتي طاقية أبيه القديمة المزيَّنه بريش الديكة الملون، والتي احتفظت بها مع حزام مهده في صندوق عرسها العتيق، ورسم له عمّه قاسم صورة جميلة وهو يلعب الشطرنج.

حدثه جده عن عمه عبدالواحد «البطل»، وعن جده الذي قتل الضابط الإنكليزي «ابن الكلب». ظل عجيل يفاخر ببطليه ويذكرهما أينما حل: في مجلس قهوة القرية، وعلى مسامع الضيوف، ولأي سائق أو مسافر يجمعه معه طريق، وللمصلين بعد صلاة الجمعة، وللجيران ولعبود ولنخلة الدار، فيما يبكيه قاسم أمام النهر بحرقة «خسارة».

غزا الشيب شعر قاسم وازداد وجهه تجهُّما.. الأمر الذي أدهش حسيبة وأولادها حين انفجر بالضحك حتى انقلب

على ظهره، وبانت فخذيه وهو يرفس الهواء بقدميه لعنف الضحكة التي اجتاحته وهو يسمع «القائد» في التلفاز يُصدر قرارا بقطع أذن كل هارب من الجيش... دنت منه حسيبة وأجلسته وهي تسحب دشداشته إلى الأسفل، كي تستر فخذيه عن الأولاد مستجلية ما انتابه، فوضع يده على أذنه الناقصة، وقال من خلال ضحكته المتقطّعة: «الجرذ قضم نصفها وسيقضم هو نصفها الآخر».

ضجت القرية بالضحك ونشطت السخرية بين الشَعب، وقيل: «وإن هرب مرّة أخرى؟»، قيل: «فالأذن الأخرى»، قيل: «وإن هرب مرّة أخرى؟».. فتشعبت الأقوال، ومنها ذلك الذي أُعدِم بسبب قوله: «سيقطَع.. (ذاك) الذي يحبه سعدي»، وعلّق الذي لحق به إلى حتفه: «إذاً سيُنافس الولد في رزقه». وضحك الشعب وهو يتخيّل نفسه أكر الآذان فعدَّل «القائد» قراره بالإعدام بدلاً عن قطع الأذن.

هبت أفواج الشرطة تطارد الهاربين، فاختبأ سعدي بسرعة قبل أن يداهموا بوابة البلوط. فتشوا في كل مكان؛ في غرف النوم، تحت الأسرّة، وراء الأبواب وفي المطبخ وبيدر التبن وبراميل الماء وعلى السطح، وأطلوا في البئر ووردة تنظر إليهم بكراهية، وتبصق على الأرض حتى خرجوا،

فخرج سعدي من مخبئه تحت الحمارة المجلَّلة ببساط طويل متدلي حتى الأرض.

مسح رقبتها وداعب أذنيها ووعدها خيراً ثم دلف إلى المطبخ، بينما قبضوا على قاسم حين داهموا بيته، وعثروا عليه في غرفة الرسم منهمكاً بألوانه، فأطلقت حسيبة بقوة صوتها استغاثةً سمعتها القرية كلها ومزارعو الحقول القريبة.

ركضنا جميعاً نحو مصدر الصراخ لنرى فصيل الشرطة يقيد يديّ قاسم بالحديد وراء ظهره، ويقتاده إلى وسط ساحة القرية، فمشينا خلفهم يتشفع الرجال بشرطة يعرفونهم، وتتوسل النساء بأي شرطي.

خَيّمَت على القرية ظهيرة كابوسيّة ساخنة، استشعر الجميع ما تنذر به من فجيعة، وحاولوا إبقاء حسيبة في بيتها فثارت عليهم، ولم يجدوا غير والدها قادرا على إرغامها على المكوث في دارها مع أولادها.

أغلقَ الحاج عجيل على نفسه باب غرفة الضيوف، وارتمت وردة على عمتي لتبكيا بعد أن أغلقتا عليهن الباب والنوافذ وغطتاها، مِنَ الداخل، بالبطانيات كي لا تسمعا صوتاً... وكان صوت حصى الدروب تحت حشودنا السائرة يشبه خربشة الجلد بمخالب خشنة. يتصاعد الغبار

من الأحذية إلى الرؤوس، فيتحوّل إلى طين في الوجوه، عند التصاقه بالعَرق المُتصَبِّب حرّاً وحيرة وعجزاً وخوفاً وقَهرا... كنا كقطيع دواب صامت أو لاغِط.. لا فرق!!.

أوقَفوا قاسم في منتصف الساحة ووسَّعوا من نصف دائرة الحشد حوله. همهمات أسف، أو ألم أو همس احتجاج لا يُسمع أو «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أو توسُّل أو تنفس يصطدم كله بكلمة تنطلق من فم شرطي: «قَرار حُكُوميّ».

.. شمس القرية، دموع النساء، ارتعاش الشيوخ، ارتعاب الأطفال، ذبول النخل، هروب العصافير، وقاسم مطأطئ الرأس بشعر منفوش.

قيَّدوا قدميه واقفاً، ويداه خلف ظهره بالحديد. ثيابه مُلَطَّخة بالألوان.. أحمر.. أخضر.. أبيض.. وذكريات عنه في الرؤوس التي تطوقه حيّا. لقد خطّ لها واجهة الدكاكين، أو صلّح لها مذياعاً ما، أو خطّ شاهدة قبر. وشاهدته كان قد أعدّها منذ زمن بعيد.. منذ ابتداء الحرب، وركنها في زاوية المرسم مع بعض اللوحات القديمة: «هنا يرقُد الإنسان قاسم عجيل الرملي مع أحلامه، وهو مُخَتَرِع الخط القاسميّ.. أمَيّت ولم يُمت». وعلى قِفا الشاهدة كَتَب عبارة طاغور: «إنني أنحني لكم جميعاً ثم أمضي في رحلتي».

ألوان.. وألوان ووجوم وارتباك ووجوف جاف مستحيل، وجوه صفراء، قلوب قارعة منقرعة، حناجر أضاعت أصواتها، بلاعيم عاطلة عن ابتلاع ريقها، ناشفة، مفعمة بطعم رمل صحراوي ورائحة دم، ملح، دمع أو لا دمع. عيون تنظر ولا تنظر ومدير الشرطة يسأل قاسم عن مطلبه الأخير فيضيّق نصف دائرة البشر، ليسمَع ولا يسمع لولا أن صاح الضابط بأحد رجال الشرطة: «هاتوا له أباه».

أراد قاسم أن يوضّح لأبيه أموراً كثيرة، أو أن ينظر في نظاراته العزيزة نظرة أخيرة ويعتذر منه عن سيل أحزان قادمة، أو يُلمِّح إلى انعدام الفرق بين مقتله ومقتل عبدالواحد، فالقاتل واحد والدافع واحد. ومدير الشرطة الذي منحه وسام شجاعة عبدالواحد هو ذاته الذي سيأخذ منه ثمن رصاصات إعدام قاسم ويكتب على تابوته «خائن»...

أراد أن يحتضن أباه ويعتذر عن طوفان أحزان قادمة، أو ينظر في نظاراته عسى أن يفهمه وينقل إلى حسيبة وأمه ووردة معنى انطفاء النور الأخير في عينيه، أن يخبرهم بأنه لم يرد الرحيل ولكن أجبروه عليه، أو يوصل إليه/ وإليهم/ وإليكم/ وإلينا عَبْرَه بأنه سيصبح بعد الموت مثله/ مثلهم/

مثلكم/ مثلنا جميعًا؛ مسلوب الإرادة والحرية والحلم ورأسه المحني حَزِنًا؛ على نفسه وعليهم/ وعليكم/ وعلينا وعلى جمال الخط القاسمي وشاطئ النهر والحياة، هو مثل رؤوسهم/ رؤوسنا حوله يُديرها توزيع التفاتات النظر بين رأسه وانتظار مطلع رأس أبيه الذي لم يطلع، فقد رجع الشرطي وقال: «إنه يرفض»... فاعتصر الألم قاسم متكثّفا في لحظة موجعة... أشد إيلاماً من آلام مضت أو ستأتي، فاقترب منه الضابط وامتدت الآذان لتسمَع: «إذاً لا تضيّع وقتنا، اطلب أي شيء آخر بسرعة».

رفع قاسم رأسه وتطلعت القرية، والعالم تطلّع إليهم وودّ لو يقول: أريد أن أرى شاطئ دجلة أو اقتلوني هناك حيث كنت أذهب منذ طفولتي حيث: ذراع حسيبة الأبيض في فجر أبيض، الوطن الأحمر في قلب أخضر، الصخرة والسمك، الخط القاسمي والرمل، قرار عدم المشاركة في حفلة القتل، جزيرة وسط النهر، حصى، جرف، نوارس... نوارس وأمواج وجريان الماء طويل.. يطول، وطال تحديقه في الضابط صامتا، فأعاد عليه بنفاذ صبر: «ماذا تريد؟».

هزّ قاسم رأسه: «لا شيء» فأشار المدير الضابط إلى من معه ليعصبوا عينيه، واصطف فصيل الشرطة أمامه وفق الإيعاز إليهم بكلمة زاجرة، وبأخرى ثنوا ركبهم على

الأرض، وبأخرى صوّبوا فوهات بنادقهم إليه، فصاحت النساء جزعا.. وانهارت بعضهنّ مغشياً عليهنّ، فرّ أطفال، ونظر شيوخ إلى الغيم، ووُضِعت الأكف على العيون كي لا تَشهد، أو لترى خَلَل الأصابع، وأدار بعض منهم وجوههم، وصرخ الضابط: «ارمِ»... فلَعلَع الرصاص، وارتمى قاسم على الأرض تحت مطر مجنون غربل جسده بثقوب حمراء، تبدو عن بعد مثل شقائق نعمان حُمر، ووراء الباب سمعت حسيبة وأولادها صوت الرصاص فصرخت لبوة جريحة، وجلس والدها الواقف وراء الباب، قبض الحاج عجيل على بلعومه، على تفاحة آدم، على إبرة القنفذ، وشَعر بها تؤلمه لأول مرّة في حياته.. وكأن الرصاص كان ينغرس فيها، وراء الباب سَدّت وردة أذنيْ أمها بأصابعها، إلا أنها سمعت، وغابت عن السمع منذ الطلقة الأولى، ولكن... من يَسد أُذني وردة؟؟!!.

ثقوب حمر.. حتى يخرّ أحمر ويخرّ منها الأحمر.. حدّقنا إليه والشمس.. مرمياً على الأرض أحمر.. برهة... تلوّى قاسم قليلاً في حركة واهية أخيرة... كأنّه حاول رفع جسده... ثم... هَمد ... جثّة ميتة إلى الأبد.

- 8 -

.. الغياب.. أو وجه الحضور الآخر، ربما قفاه.

غاب قاسم عن الحياة؛ روحه، وإن بقيت جثته في الساحة يحرسها شرطيان... وصور في رؤوس الآخرين... أكثرهم وردة وحسيبة، وغاب عبدالواحد في المقبرة، وغاب أحمد في المدينة، وغاب سعدي إلى حيث لم يدر أحد في البداية، ولكن بعض القادمين من العاصمة قالوا إنهم قد رأوه هناك؛ في بعض المراقص والمطاعم والفنادق يضحك مع أقرباء «للقائد» يضحكون ويستبدل هم السيارات... قيل: إنه يعمل معهم، وهم يزوّدونه بمختلف البطاقات و.. الطاقات... قيل: أصبح غنيا، وغطّى زاوية رأسه البارزة بالعقال، الذي لم يضعه عجيل على رأسه منذ إعدام قاسم، وغاب عن مجلس قهوة القرية، وعن الناس معتكفا في زاويته في غرفة الضيوف، ممدَّدًا على ظهره،

محدقاً في اللوحة التي رسمها قاسم: وطن أحمر وقلب أخضر ونهران بيضاوان... وكفّ عن رواية بطولة جده، أو بطولة عبدالواحد، كفّ عـن الحديث، إلا من إشارات طلب الماء، أو مساعدته في الذهاب إلى المرحاض، وعمتي تجلس قرب رأسه؛ ناحلة، مُراقة الدمع طوال الوقت، بادية التغضنات في الوجه والأجفان وجلدة قِفا الكفين. تتناوب مع وردة على مسح خيط الدم النازل من تفاحة آدم في عنق عجيل... ذلك الخيط الذي عاود الظهور بعد أكثر من سبعين عاما، بعد سماع الطلقة الأولى على جسد قاسم، صار عجيل يشعر بإبرة القنفذ تؤلمه على غير ما نسي، فهي لـم توجعه هكذا حتى لحظة انغراسها عند لعب الأمس وسط الصبية الدشاديش قبل نظاراته الطبية...

خيط الدم مُصرّ على النزول/ البقاء/ الدوام.. دوام النزيف، فكلما مسحته إحداهن، نزفت الإبرة خيطا آخر على الفور، فكان عجيل يبعد أيديهنّ أحيانا عن مسحه حين يلحظ التعب واليأس يأخذهنّ... وَجَعُه يتكرّس كلما أطال النظر إلى الصورة، التي يُبصر فيها وجه قاسم أحيانا... الولد البِكر الذي بَشّر مَقدمه عجيلاً بسلامة رجولته، إلا أن موته الآن بهذه الفجيعة يضعه على تقاطع الحواف الحادة: بين عبدالواحد وقاسم، أيهما الذي...؟

أسئلة.. أسئلة ولا يعرف ماذا يقول... تستعصي التعابير كعادتها في حنجرته المَوخُوزة... كلاهما من صلبه، فيعاود النظر إلى الخريطة الحمراء التي أخذتهما معا... وإلى شكل الأخذ؟... النتيجة: أنها أخذتهما.. لا يَفهم فتدمع عيناه ويسيل خيط الدم من تفاحة آدم.

تمسحه عمتي وتبكي وهي ترى انحدار دمعتي الحاج على جانبي رأسه، وتهم بأن تشكو له حالها.. حال قاسم بعد إعدامه، فتحدجها وردة بنظرة منها، وتعضّ على شفتها السفلى محذرة أمها، ليبقى عجيل وحده من دون كل الناس لا يعرف بترك الجثة وسط الساحة ثلاثة أيام...

قال الشرطيان: تقول الحكومة؛ ليُصبح عِبرة لغيره.

وكنا نمرّ، نحن المعتبِرين على بعد قليل، نراه أحمر، ملتوياً ومفترشاً بركة دمه المتخثر.. ثم الناشف.. ملتصقاً به، وذباب أزرق يطنّ حول ثقوبه، يطير ويحطّ عليها، ويدخل ولا يبعده الشرطيان، فهما بالكاد يطردان كلباً يتشممه أو فضول الذي يتقرب الناس، حتى فاجأهم الملا صالح ظهيرة اليوم الثالث وهو يخلع جبّته، ويغطي بها الجثة دون أن ينتبه إلى الشرطيين الواقفين في الظِل، فسارعا إلى حمله من ذراعيه وأخفياه ستة أشهر عاد بعدها هزيلاً، راعِشاً، مُصفرّاً ومُكرِّساً خطب صلاة الجمعة للدعاء

«للقائد» بطول العمر والانتصارات، كي ينعم الناس والأقارب- أقارب القائد، طبعا- الذين وجدوا في سعدي أداة لا تكترث، وفي أحمد عنادا أهش من صلابة استناد ظهورهم على دكّة قوة قريبهم «القائد».

قالوا له:- نحن الذين نصّبناك قاضيا، فاحكم بما نأمرك به.

قال:- والقانون؟

قالوا: - دعه جانبا، نحن القانون.

ولم يستطع أحمد تخيّل إهمال القانون في الحكم، وأرقام المواد القانونية... تلك التي حفظها، وتَشرَّب بها دمه، وضَربت في أعماق اقتناعاته، فتردّد.

بعثوا إلى داره امرأة تحمل حقيبة تاجر، فتحتها جوار أقداح الشاي فوق الطاولة، وراحت تُخرِج منها رزم الورق النقدية مفتعِلة حاجتها لمساعدته في قضية، وحمل أحمد أكداس الورق ليعيدها إلى الحقيبة مُنزعجا رافضا، فالتقطوا له الصور. هجموا على الدار، والتقطوه ليرموا به في السجن «مُرتشياً»، ويرجعَ أطفاله إلى عمتي المنشغلة بالنواح ومسح خيط الدم النازل من تفاحة آدم.

دُفِع ثمن الرصاصات، ودُفن قاسم جوار عبدالواحد

كما أرادت عمتي، التي راحت تجلس بين قبريها صباح كل يوم... تبكي وتضحك وترتب الحصى الأبيض على الارتفاعين، تُقَبّل الشاهدتين وتعاتبهما على الرحيل المبكر، ثم تسألهما عن أحوالهما، وهل تمّ التلاقي بالجدود؟؟ ثم تنقل لهما الأخبار: أبوكما في الفراش لا يتكلّم، وردة لم تتزوّج، سعدي راح، يقولون: إن حالته جيدة لأنه يعمل مع الحكومة، أحمد في السجن، حسيبة تزرع الحقل وتبكي، شيماء مريضة، إبراهيم منشغل بالغناء، محمود لا أدري، عبود «يا حَبة عيني» ازداد عواؤه الليلي منذ أن... في الساحة يا قاسم، وأصبح صوته يخيف الأطفال. ترتعد من عوائه حتى النساء والكبار لأنـه عالٍ، طويل، أليم، كأنه ذئب جائع جريح.. «يا حَبة عين أمـه».

وكان بعض الناس قد شكاه، فدارت به وردة على الأطباء ولم يُسكتوه، ثم مع عمتي طُفنَ به على السادَة والدراويش، الذين نصحوهما بأن يحفرا له حفرة شبيهة بالقبر جوار قبري أخويه، ليبيت فيها ليلاً وتغطى بباب من خشب، فتحمّس الكثيرون من أهل القرية لنصيحة الدرويش، هبّوا للمساعدة في الحَفر ونجارة الباب، وراحت وردة تأخذه عند كل غروب شمس بعد أن تُطعمه عشاءه، تُنزله هناك ثم تضع الباب على الحفرة وعلى

الباب بضع صخرات كي لا ترفعه الكلاب، وفي الصباح تُعيده عمتي معها بعد وجبة البكاء بين قبريها.. قبورها.. الثلاثة...

أصبحت وردة طويلة الصمت والشرود، تنظر في داخلها إلى قافلة الغائبين في رحيلهم النهائي منتبهة إلى أنها لم تُكمل حديثها مع قاسم.. ذاك الحديث المقطوع الذي لم تتحدث غيره معه أو مع سواه، إلا ما هو إجرائي للعيش وروتيني. تتأمل أباها الآخذ بالتنازل والانزواء... في مكانه. صار ضئيلاً، هزيلاً ويزداد صغراً مع اللحظات... مثل ثلج يذوب، وحين تراه عن كثب في فراشه، كان يبدو ضئيلاً كأنّك تراه من بعيد...

دخلَت غرفة الضيوف عائدة من التنور وطبق أرغفة الخبز الساخن على رأسها، وجدته لازال محدّقاً في اللوحة... عينان وخيط دم. نظرت إليه ثم إلى الصورة. وقفت بينهما تنقل بصرها... طرحتْ طبق الخبز عن رأسها أرْضًا، واقتطعت حافة رغيف محترقة، نظرت إلى أبيها الناظر إلى اللوحة واتجهت إليها.

كانت اللوحة عالية، فوضَعت وردة تحت قدميها مخدتين وارتفعت على أصابعها، وبحافة الخبزة المحترقة أنزلت سهما أسوَدَ اخترق منتصف القلب الأخضر وقلب

الوطن الأحمر... أنزلت السهم بعنف ولوعة... تماما مثل ذلك الشاب الذي جاء مع فِرق وزارة الرعاية الاجتماعية في مطلع صيف بعيد، وتذكرت كيف نظر إليها، ثم أنزل ذلك السهم الأبيض المسموم، الذي قتل بقرة أمها، وسهمها الآن أسود؛ من فحم الخبز المحترق... وما أن وضعت رأسه المدبب حتى سمعت خلفها هتاف والدها: «نعم... نعم... فهمت يا قاسم».

التفتت إليه. كان يمد إصبعه باتجاه اللوحة، يرفع رأسه.. كأنه يحاول النهوض، ركضت نحوه لتساعده، لكنه أشار لها بتركه، فأعادت رأسه إلى الوسادة ليستقر عليها بارتياح، دليله آثار ابتسامة على شفتين عتيقتين غائرتين في كثافة شيب اللحية والشارب... ازداد بعدها صمته، ونزيف إبرته، وذوبانه التدريجي، يوماً بعد آخر، حتى تماهى بعدها في فراشه... ومات.. فكان خفيفا أبيض، كحمامة بيضاء ميتة، حين حملوه ليستقرّ بجوار قبور أبنائه.

- 9 -

انتهت الحرب التي سبق وأن تنبأ إسماعيل بانتهائها، فصَدَقَ وهو المعروف بأكاذيبه.

غادرَ محمود البلد متسللاً عبر الشمال.

اختفى عبود ليلاً من حفرته/ القبر إلى حيث لا يدري أحد، ولا حتى كيف. انقطع عواؤه الليلي إلى الأبد، وتطلعت عمتي إلى حفرته صباحا عشرات المرّات.. مئات.. ولم يكن فيها.. عواء.. سألَت عنه عجيل وقاسم وعبدالواحد الراقدين جواره ولم يخبروها فبكت.. بكت عمتي حتى اهتزّ الماء الأزرق في عينيها وتمنّت وردة لو تعوي لها بدلاً عنه.. ولكنّها.. هي وردة.. كانت غارقة في شرودها وتمزقها الحزين ولـم تعبأ بسطوع نجم أخيها الذي صار يظهر- بعد الحرب، في التلفزيـون مترَئساً (رابطة أحباب القائد)، حاملاً مقصه ليقصّ أشرطة

معارض هداياه؛ صوره.. وسط تصفيقهم، ويقبّل الأطفال الحاملين الورود لاستقباله مغطياً رأسه بالعقال، وعلى وجهه تلك الابتسامة البلهاء والملامح الميّتة... فصول العام لا تعنيه/ لا تعنينا/ لا تعني أحدا/ لا تعني وردة وعمتي.. فالتبدّلات ليست في كون السماء ممطرة أو مشمسة.. التبدّلات هنا.. أشيروا إلى صدوركم، وارسموا حول أنفسكم دائرة تعني الآخرين، وحسيبة خائضة في طين سواقي ري حقلها، كاشفة ذراعها لتبدّلات الفصول.. حتى فقدت بياضها، فلمن تظل بيضاء؟.. ناصعة البياض مادام قاسم قد رحل...

وصارت عمتي تجيء إلى قبورها الأربعة كل يوم، بعد أن كانت كل خميس، ترافقها وردة لتبكي معها أحياناً، وتغيب في شرودها أحايين أخرى، وعندما رسمت عمتي بحصاةٍ مستطيلاً بجوارهما، قالت: «هذا قبري». ونظرت إلى وردة كي لا تنسى الوصية أو لكي تبادر، هي الأخرى، إلى رسم قبرها بجوارهم، لكنّ وردة لم تتحرك.. لأنها لا تحب الموت.. ومع أنها، مثل الجميع، لا تدري أين اختفى عبود وكيف.. إلا أنها تود لو أن موتها، حين يحين، يكون اختفاءً مثل عبود... غياباً مثل محمود.. إلى حيث لا تدري، ولكنها لا تريده: دفنا.

مَسحَت عمتي أسفل شاهدة قبر عجيل برفق وكأنها تواصل مسح خيط الدم النازل من تفاحة آدم، وقالت لوردة أو لنفسها: «لم أكن أسأله إلا نادراً.. ومن ذلك أذكر أنني سألته عن معنى كلمة (مسامير) التي كررَتها أمه ثلاث مرّات قبل أن تلفظ نفسها الأخير.. قال: إنها تقصد الحياة: شبيهة بتفاهة ضحك عشيرتها في سهراتهم، حين كانوا يحمّون المسامير على النار، يُسخنونها حتى تحمرّ ثم يسقطونها في إناء ماء بارد فتصدر صوتاً «كِش».. صوت برود المسمار المشوي. كششششش. ضَحك. يضحكون لأجل هذا الـ«الكش»*... قالتها أمه ثلاث مرّات: مسامير.. مسامير.. مسامير وماتت... أود لو أقولها.. وأموت».

بعد ذلك تحدثت عمتي إليهم، نقلت الأخبار، عاتبتهم على الرحيل، ومازحت حفرة عبود الخاوية، ذكّرته بجماله الأول وضحكته الأولى، ثم عاودت بكاءها.. وناحَت:

جاز الحُدُود وفات　　دَهري وتعدّه
وكـل التعبنـا فيـه　　مـاء وتبـدّه

سمعها إسماعيل الذي كان يمرّ في الدرب المحاذي للمقبرة، تخبط أقدامه الحصى وتثير الغبار. توقف حتى أتاح لغبار أقدامه الصعود إلى وجهه، وانتبه إلى فاجعة عمتي.

* رواية «داباداه»/ حسن مطلك/ ص220.

ودّ لو أنه قد حمل ربابته معه ليرتل لها أحزانها وليبث معها أحزانه: يُتم ووحدة وفقد وفقر وتكذيب.

كان والده يتنبأ، فيحدُث فعلاً كُل ما يتنبأ به ولم يخطئ إلا في توقع يوم القيامة، حيث مات ولم تقُم... وإسماعيل أقل من أبيه، لكنه توقع نهاية الحرب فانتهت، وقبلها توقع الفيضان وزواج عباس ومقتل قاسم وسَفر محمود ووصول سعدي، لأنه يصف زمانه بأنه «زمن أصحاب سعدي والراقصات»، ويتوقع حربا أخرى.. بل حروبا...

من خلال الغبار، أبصرَ إسماعيل وردة محنيّة الرأس عند حافة حفرة عبود، فخرج من غباره وقصدها حتى وقف على القبر الخاوي، دون أن يشعرنَ بمقدَمِه. قرفَصَ على حافته، قبالة عمتي، وأجابها على أشعار نواحها بأشعار.. رغم أنه ودّ لو اصطحب ربابته:

هَم وحـزن وفـراق والدنيـا والبيـن
يا روحي كلها عليك زيـن وتحمـلـين

فصحَت وردة على صوته، واحتدّ بكاء عمتي على كلماته، فردَّدت:

ها ساعة..ها سنتيـن ها عمـري كـله
جرح بجـرح يا روح يا هـو الأشِـلّة؟

فبكت وردة وشعرت عمتي بتفريغ أكبر، وتلا إسماعيل على إيقاع الحزن عينه:

ترجو اليموت يعود　　روحي مهبولة
طبقَت عليه الأرض　　لا لن أنوله.

فأنّت عمتي غير مبالية بوجع عينيها. ارتفع نحيب وردة وانفجر إسماعيل بالبكاء، فاستجابت عمتي لاحتفالية الشكوى وأضافت:

يا رَب لك شَكواي　　مِن هذه الجروح
عَجّل شفاهِن إذاً　　أو تأخذ الروح

بكوا حتى أفرغوا عيونهم ولم تفرغ الصدور، ثم هدأوا ومسحوا رشح أنوفهم المُحمرّة. سادهم صمت القبور، فشعر إسماعيل بأن عليه قول شيء ما، فقال؛ دون أن يكترث بأنه سيقول تنبؤاً لا يظنه في نفسه: «اطمئنوا ستجدون عبوداً.. ستجدونه أو سيعود وسيرجع محمود».

لم تكن هي الكلمات التي أراد قولها تحديدا، وعرَف بأنها لم تقع عندهنّ موقع تصديق، لأن وردة لم ترفع رأسها، وعمتي واصلت مسح مخاطها بطرف عباءتها، فقال: «اطمئنّا سوف أثأر ممن آذاكما.. آذانا جميعاً».

انتبهت إليه وردة بحدّة.. وكأنها تكتشف وجوده

تواً.. وكأنها تعرفه أوّل مرّة؛ رجلاً آخر وليس إسماعيل الوحيد، الفقير الساكن في بيت أبيه الطيني في أطراف القرية، عازف الربابة الموسوم بالكذب، وأجاب وردة بنظرات جادّة قائلاً: «عندي خطة.. جهنمية». فحدقت إليه وردة لاستنطاقه، ودون أن تسمَع عمتي ما قاله، سألته بعد أن أنهت تنشيف وجهها: «مَن يغسل لك ملابسك يا إسماعيل؟» ثم أضافت: «الله يساعدك... كيف حالك يا ولدي؟» فأجابها مشيحا بوجهه عن وردة وزافراً وهو ينهض: «حال البين.. حال الغُراب يا عمّة».

وغادرهما تُشيعه وردة بنظراتها حتى وصل درب الحصى والغبار، فنهضَت مسرعة وصاحت به:

- «إسماعيل.. توقف».

فتوقف وركضَت إليه لتسأله:

- «أتعني بأنكَ ستثأر لنا من ذلك الغريب.. البعيد..؟».

قال: «هو بعينه».

قالت: « الذي قَتل قاسم وعبدالواحد وفوزي وأبي و...»

قاطَعها: «لم أكرَه أحداً ككرهي له».

قالت: «مثلي».

قال: «فتّتنا وسوف أفتته».

قالت: «هل ستحكي لي الخطة؟».

- «سأحكي لكِ الخطة.. لكِ أنتِ وحدكِ لأن الآخرين يضحكون».

- «أأنتَ صادق في كُرْهك له؟».

- «كصدق دموعنا التي سكبناها الآن».

- «أتحلم بالخلاص منه؟».

- «أكثر من حلمي بالخلاص من الفقر».

حدّقت وردة في عينيه بعمق وقالت:- أنتَ رَجل تستحق الاحترام.

فارتبك أمام عينيها وهو يُبصر الجَمال يعاود التفتح في وجهها ويجلي ذبوله، فقال: «ولكنني... ولكنني... مشغول بالخطة..»

قالت: «أتتزوّجني؟».. فبهره اكتمال تفتّح وجهها.

شهق، أجاب موافقاً بمَسرّة وعزم: «سأُنفذ الخطة.»

ونادت وردة على عمتي من أجل العودة إلى البيت.

- 10 -

تزوّجَت وردة إسماعيل ووعدته ألا تنجب له إلا أولادا، ووعدها أن يسميهم كلهم «قاسم»...

لم تعترض عمتي، لم يعترض أحمد ولكن كل أهل القرية ضحكوا وعضّوا أصابعهم، ثم أوصلوا ضحكهم إلى سعدي في العاصمة، فجاء ليعاتبها على زواجها من إسماعيل، وقال:

- «إنه كذاب.. وكان يهرب أيام الحرب». فرمقته بصمت ثم أضاف: «لا بدّ أن تتركيه إنه لا يناسب مقامي بوصفي رئيسا لرابطة أحباب «القائد».. ماذا سيقال عني إذا عرفوا هناك بأن زوج أختي كذاب ولا صنعة له غير عزف الربابة؟».

قالت: «ولكنه رجل يستحق الاحترام».

صاح: «على ماذا؟».

قالت: « إنه يحلم بما أحلم به».

قال: «أنت مجنونة...».

وأراد أن يواصل الحديث معها، لكنه لا يعرف ماذا وكيف يقول، فتمتم ثم قال بحزم: «إنه.. إنه ليس حلواً».

وقصَدَ حسيبة علّها تساعده في إقناعها، لأنه لا يجيد الكلام، فلم يجد في دار قاسم غير إبراهيم، فأقنعه بأن يأخذه معه إلى العاصمة كي يغني هناك ويصبح غنيا ومشهورا مثل كل الشعراء الذين تغنّوا بـ«القائد»، ففرح إبراهيم ولكن حسيبة، حين عادت من الحقل، انهالت على رأسه ضربا:

- «أتريد أن تتغنى بقاتل أبيك يا ابن الـ... يا ابن حسيبة؟!..».

أدخلته حجرته ركلاً، وأغلقت الباب، ثم التفتت إلى سعدي الذي اقترب منها مشدوداً إلى خشونة طبعها وثورتها، فقال: «إهدئي يا حسيبة.. إهدئي، فحتى أنتِ عليك أن تفكري في نفسك أيضاً».

مدّ يده إلى ذراعها وفي عينيه رغبة، فاحتدمت وحارت في ردّ فعلها.. بصقت في وجهه «تُـفّ»، فـشعر هو بخطورة ما ارتكب، سارع في المغادرة، لكن حسيبة عاجلته برمية من حذائها على زاوية رأسه قبل أن يغيب خارج الباب،

ويغيب عن القرية بلا عودة، إلا أنه ظل يطل في التلفزيون، وظلت هي تبصق عليه وترميه بحذائها كلما ظهر حتى في آخر صورة له مع «القائد»، الذي هدّد بمحاربة العالم دفاعا عن: السيادة والكرامة والشرف...!

وأقسم إسماعيل أمام وردة بأنّه لن يشارك في الحرب الجديدة، وأنه عازم على استمرار الانشغال بخطته، وكان يطلع وردة، كل يوم، على تفاصيل وتعديلات جديدة، فطالبته بأن يشمل ضمن تعديلاته عقاباً للمغنين والشعراء، الذين كانت لا تعرفهم قبل أن تُخبرها حسيبة عن محاولة سعدي إقناع إبراهيم، فوعدها بذلك لاحقا، ومضت وردة تنقل وعده إلى حسيبة، وما أن دخلَت ولمحت باب مرسم قاسم موصدا، حتى أعلنَت عن رغبتها في أخذ كل صورها، التي رسمها لها قاسم منذ طفولتها، ففتحت حسيبة لها باب المرسم، وغادرت باتجاه الحقل، بعد أن عَرَجت على بيت ابنتها شيماء الممددة في فراش مرضها؛ صفراء، ناحلة مثل خيط صوف عتيق... وكعادتها، لم ترجع حسيبة إلا بعد غروب الشمس، بعد أن تُنهك جسدها بالعمل، كأنها تروّضه...

ساد الكون ظلام، وثمة قمر ينير.. قمر تأملته حسيبة بنظرة جادة، فلم تجد فيه أي معنىً... كان عادياً، أجرد مثل

قطعة معدنية كالحة ولا شيء فيه.. لا شيء، ولا حتى وجه قاسم...

المقبرة مظلمة والحقول... أما ظلام القرية فتثقبه المصابيح المتناثرة، وفي مثل هذا الوقت كانت تسمَع، كما الجميع، الأنغام الحزينة لربابة إسماعيل، لكنّه كفّ عن ذلك بعد زواجه بوردة، وتركَ فضاء القرية والحقول والمقبرة والعالم نهباً لنقيق الضفادع وصرير الجنادب وعواء بنات آوى وتنابح الكلاب وتصايح الأولاد اللاعبين بين البيادر. يرتفع على كل ذلك، بين برهة وأخرى، نهيق حمار... ظلمة، أقدام ملطخة بالطين، نجوم بعيدة، قمر بلا معنى، رأس بلا حلم، تصَبُّر بلا غاية، وقلب حزين.. حزين.. يـا عمتي انتبهي إلى الماء الأزرق في عينيكِ فقد تَحرّك.. سوف يعميكِ البـكاء، كما ستُهلِك وردة رغبتها بالخلاص، أو رغبتها بالحياة أو بالثأر أو بالتحدّي.. أي تحدٍ!.. هي لا تُحب الموت.. مُصرّة على البقاء مُخلِّفة على درب مسيرتها ورداً وقواسم، غير مكترثة بحرمان القرية من أنغام ربابة إسماعيل أيام كانوا يتناولون عشاءهم، وينام هو جائعاً متوسِداً ربابته...

الآن قد تعشّى، وها هوَ يحوم مثل الفراشة حول النار، حول وردة وقد عَطّرت إبطيها بالقرنفل وأشرق وجهها

بالحلم فيما تلم كَتِفَيها العاريتين تمنّعاً.. جميلة.. جميلة.. «ما أجملها!» وإسماعيل لا يحتمل الصبر أمام سحر ابتسامتها... تُعذبه كل ليلة بتمنّعها المشروط حتى يعيد على مسامعها تفاصيل خطته والتعديلات اليومية الجديدة..

بعد ذلك تهبه نفسها بلا حدود.. لا حدود لها، وإسماعيل أكثر من يدرك ذلك فيسأل نفسه: هل كان فوزي وعقيل يدركان ذلك؟.. وردة كائن لا نهائي.. لا نهاية لها، لكنها تحتاج إلى بداية.. بداية ما.. ولو بحلم.. ولو بكذبة..

مدّ يده فلَملَمت كتفيها وتلوَّت مُمانعة قائلة: «الخطة»، وتمددت فوق البساط على ظهرها، فتمدد إسماعيل إلى جوارها؛ نصفه على البساط ونصفه فوقها، وأعاد على مسامعها خطته، فساعدته في رفع نصفه الآخر فوقها.. واهتزّ إسماعيل عذوبة، تراقص مع خصلات شعرها المفروش تحتهما.. يهزّه الشعر أو هو الذي يهزّ الشعر، ووردة شعر وعيون وخدود وشفاه وأكتاف وقلب و... وردة لا نهاية لها ولا يغيب عنها الغائبون.. وذلك الغريب البعيد الدخيل: «لقد جَعلنا فَتياً مبعثراً».

فأجابها إسماعيل: «سأجعله فَتياً مبعثَراً». وازداد لهاثه، لهاثهما وهي تسأل بتقطع: «والشـ.. والشعراء؟»، فقال

ي..

ت..

مُبـ..

ع..

ث..

صِفر اليَدين

ربما أن «صِفر اليدين» محاولة أخرى لإعادة ما حاولتُ وصفه في قصتي «عرس الواوي» حين يهطل المطر والشمس طالعة. غُربة مُفتقِرة إلى معناها. وجود حائر. منفى بالمعنى البابلي؛ زماني أكثر من كونه مكاني.. إنه تعطيل الحاضر الذي تكوينا استطالته.

لا أعرف كيف أُسمي زعمي البحث عن محمود وفي واقعي لا أبحث عنه...

أستيقظُ ظُهراً. أُنقبُ في الصحف، قبل أن أغسل وجهي، ثم أقذفها بخيبة «لا جديد عن الوطن».. حَمّام، قهوة بالحليب، ثم سيجارة وإطلالة من الشرفة «لا جديد في المنفى» فأُعاود، ربما للمرة الألف، قراءة الرسالتين الوحيدتين اللتين وصلتا إليّ منذ خروجي.

أيام تشبه بعضها، وسنوات تمحو أحلامي وتشتبك

مع الذاكرة بإنهاكٍ مرير. أسير في الشوارع ناظرا إلى رقاب الناس... أتُراني الوحيد الذي يَشعر بوخز إبرة قنفذ في بلعومه؟.. أوشكُ أن أسأل العابرين؛ هل يرون خيط دمٍ نازل من تفاحتي التي ورثتها عن آدم؟

نحن المبعثرون في المنافي لم نَختَر أماكننا الحالية، وإنما وصلنا إليها إثر انفجارات الدخان في جحر النار الأزلية، والمترنحون اختناقا لا ينظرون؛ أية بقعة تطأ أقدامهم. لم نَختر أراضينا الجديدة، نحن الذين ركَلَتهم قديمتهم حين دِيسَت بلا رحمة، ولهذا نكابد أوجاعنا الشبيهة بسلخ الجلد حياً، ومازال السابقون مِنا يفتحون صنابير ذاكراتهم بالحديث، سائلين عن مقهى عزّاوي والثور المُجنَّح ونُومي البصرة. واللاحقون تجيش صدورهم بالغثيان لكثر التشكي فيوجزون: مَن دَخَلَ قَبره فهو آمِن.

هنا في الأصقاع القريبة من غرناطة، نتقاسم مع الفلسطينيين النحيب.. نبكي كالنساء على أوطانٍ لم نعرف المحافظة عليها كالرجال، وكم بصقنا على شواربنا في مرايا الغَرب «تَفُو» ثم انتهينا إلى حلاقتها جميعا. لا نجيد غير تسويد الصفحات بصرخات حزينة، فيراودني الشك بأن مصانع تكرير الورق ستكفي لفيض آبار الحكايات في وطني.

أتقلبُ غريباً هنا بين الجرح وعذوبة/ عذابات العُمق، مرارة حضور الزوال والانتظار المُقَنَّع بلا انتظار، الصبر ولا شيء، والتذوّق والموت، محاطاً بالإسبان: الثرثرة والثرثرة والكلاب والدخان وأوراق الدعاية، تماثيل جميلة لا تعرف ما حدث هناك لعمتي وأولادها. خواء، رقص، سيل القُبل الباردة دائما، رغم حثيث النفخ في رمادها، جمال مدبق بالزغب... لذا أحمل نفسي إلى المقهى والمرقص والحدائق وفي المترو، أعيش مشطورا بين منفاي وبلدي. تُوخِزني رؤية ضاحكٍ وامرأة مشغولة بالموضة..

خرجتُ من المترو الدائري رقم 6 بعد ركوبي لدورانه.. دوائر لا أعرف عددها تحت الأرض. عند زاوية الدَرَج، انتحت جانباً فتاة يُرنحها الإدمان. أنزلَت بنطالها، قرفصَت وبالَت. على زجاج البوابة يقف شاب أسود بأقراط فضيّة، يوزع على الخارجين عنوان مرقص للتعري. كان ليل السبت قد حل بـكائناته الدائخة، وساعة الشارع تشير إلى الثانية. دلفتُ إلى أول بار. جلست في أبعد زاوية ورحتُ أحدق في العتمة...

«لكنها الأرضُ

بستان الخزفِ الأمثلُ

الفتيت المبعثر -

آنَ خلخالٌ نحاسٌ
تحت أقراطٍ نحاسِ
آن اسمُ المرأةِ المُثلى
وجسمُ المرأةِ المُثلى
والقماشُ .. شفيفينَ،
آنَ مَـنْ حولي بعيدونَ
وكفي مُعتمة.

* * *

إنها الأرضُ
والبصرُ الذي يُغري البصيرةَ بالتلفُّتِ
بانتقاءِ المُرِّ والساكنِ المُعتمِ الروحِ.
إنها الأرضُ..،
وهذا الشُبّاكُ الداكنُ
يتـفصدُ عرقاً غامقاً
بستاناً أغمقَ مما ألفْتُ.

* * *

(راكضةٌ أشجار الخزفِ
وأنا أخْفى عن ضوضاءِ تلاطُمِها
عن إبرِ الصَّـرَخاتْ).

* * *

إنها الأرضُ
والقهوةُ
والفتيتُ المُبعثَـرُ».

---

*. القصيدة للشاعر ماهر الأصفر.

منذ صدور الطبعة الأولى لهذه الرواية القصيرة في القاهرة، حظيت بالقراءة والاهتمام. تُرجمت إلى الإسبانية وحازت ترجمتها الانكليزية على جائزة أركنسا الأمريكية لعام 2002. وتم تدريسها في العديد من الجامعات كميشيغان وهارفرد الأمريكيتين والقاضي عياض المغربية وجامعة لندن. فكما يرى البروفسور كامبران راستيغار من جامعة كولومبيا الأمريكية في مقاله عنها بمجلة (جمعية الدراسات الشرق أوسطية) أن أساتذة الرواية العربية المعاصرة والتاريخ أو السياسة العراقية أو الاقليمية الحديثة سيجدون في هذا النص بلا شك، ما يستحق الاتخاذه مادة في دروسهم.

- د. صبري حافظ: «تقدم لنا (الفتيت المبعثر) تجليات المأساة العراقية من خلال أسرة متعددة الشخصيات المتنوعة المواقف والمشارب والأهواء كصورة مصغرة للوطن العراقي برمته، بتنوعاته الثرية والمؤلمة على السواء، وحتى الأكراد لا تتناسهم».

- هاروف براوويل: «رواية (الفتيت المبعثر) تصوّر حياة عائلة كبيرة تحت نير الدكتاتورية، وتضيء الصورة القاتمة للتعقيدات التي عاشتها الشعب العراقي. إنها رواية مؤثرة ذات ثيمة مكثفة، ولعلّ نفسها غير شيء هو أكبر من شهادة سياسية أو من مجرد فصول لقاية».

- عبده خال: «في (الفتيت المبعثر) نجد التجسيد الحقيقي لأثر الطائفية على الناس من خلال رواية انتقدت من الريف العراقي فضاءً لأحداثها وجعلت من صراع السلطة والمثقف محوراً».

- د. صلاح نيازي: «من زمن الحروب والمنافي في (الفتيت المبعثر).. الغريب كل الغرابة، أنه بينما كانت الحياة تموت في القرية، أصبحت المقبرة ممتلئة بالحياة. الموتى قوى لا مرئية، ولكنّها تكاد تتحكّم بالمصائر. وما بين القبور وحوانيتها تولد حياة جديدة لم تخطر ببال أحد، مثل خروج غصن يانع من لحاء قديم».

- د. وليد صالح الخليفة: «إن لغة الرملي في (الفتيت المبعثر) لغة مبدعة وخلاقة ومركزة، خالية من الحشو الزائد وساخرة في كثير من الأحيان، فالكلمة في هذه الرواية لا تمشي بل تؤسس».

- عيسى حسن الياسري: «إنها اللوحة البانوزامية لحقبة الإنسان، تأزرت على استكمال أبعادها الفنية والتقنية موروثات ميثولوجية وشعبية طالت تكتوي بجحيم الحرب حتى استكملت نضجها.. وخرجت من حدودها المحلية الضيقة.. لتتسع إلى مجمة كل البشر».

ISBN: 978-99958-70-57-7

info@masapublishing.com
www.masapublishing.com
P.O.Box 65317 Manama,
Kingdom of Bahrain